مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، م١٦ ع١، ص ص: ٢٥٥-٣١٤ (٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ)

من بواكير شعر المنافحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم والتبشير بالرسالة: دراســـة نقديـــة

عاصم علي حمدان

أستاذ الأدب المشارك - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الملك عبدالعزيز - جـــدة - المملكة العربية السعودية

المستخلص. يحاول هذا البحث التعرض للشعر الذي كان توطئة لبزوغ الرسالة المحمدية - الخاتمة - مبتدئًا بإطلالة على الشعر الجاهلي والنضج الذي صاحب اللهجة القرشية حتى أضحت الأداة المعتمدة في إنشاء شعر تلك الحقبة وروايته ثم يتعرض البحث لقضية - هامة - وهي الشعر في البيئة المكية في العصر الجاهلي بين الندرة والوفرة مستشهدًا بأبرز شعراء مكة في حقبتها الجاهلية - متوقفًا عند الأبيات التي كانت تدل على فطرة الإيمان في النفوس وخصوصًا لجهة الشعر المنسوب إلى الزبير بن عبدالمطلب وعبدالمطلب بن هاشم.

ينتقل البحث - بعد ذلك - للحوادث المكية الهامة مثل حادثة الفيل وولادة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الدعوة إلى الإسلام وبداية المواجهة مع كفار قريش وما أدت إليه هذه المواجهة من مقاطعة أعداء الدعوة لبني هاشم وحصارهم في الشعب، ثم الانتقال

إلى مرحلة الدعوة خارج مكة وخصوصًا مبايعة الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة، وعند كل حادثة من هذه الحوادث الهامة التي كان لها دور في تغيير وجهة المجتمع المكي، كان الشعر حاضرًا يوثق الحوادث مما يدل على أهمية الشعر في كل مراحل الصراع الذي كان يشهده المجتمع المكي، ثم يفرد البحث مكانًا خاصًا لقصيدة الشاعر المدني الأوسي الجاهلي أبو القيس بن الأسلت والتي حذر فيها قريش من مغبة الحرب داعيًا إياهم إلى تغليب العقل والحكمة وتكتسب هذه القصيدة أهميتها من كونها توضح العلاقة بين شعراء المدينتين مكة والمدينة منذ العصر الجاهلي واعتراف سكان يثرب الفطري - آنذاك - بقدسية البيت وحرمته ومنزلة قريش بين القبائل جميعها.

وإذا كان البحث تعرض باستفاضة للشعر الذي قيل قبل ظهور الدعوة وبعد ظهورها في مكة مما يعتبر وثيقة هامة في التأريخ الدعوي والاجتماعي والفكري والأدبي لتلك الحقبة، وما يمكننا أن نطلق عليه شعر طلائع الدعوة، وبدايتها المبكرة، فإن البحث توقف كذلك عند الشعر الذي قيل بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة والتي مثلت مرحلة جديدة وهامة من مراحل الدعوة، واكتفى البحث بالإستشهاد ببعض أشعار حسان بن ثابت - رضي الله عنه - لأنه أحد الشعراء المخضرمين حيث وصفه النابغة بأنه أشعر الناس. وكان لسان الدعوة وفارسها المبرز في حقبتها المدنية.

وقد حاول البحث كذلك الوقوف عند المشهد الشعري في مكة في العصر الجاهلي وذلك من خلال تحليل ذلك الإنتاج الشعري فنيًا ومحاولة توثيقه وذلك في ضوء العوامل المصاحبة له أو المتوازية معه دينية كانت أوسياسية أو اجتماعية.

مقـــدمـــــة

إطلالة على الشعر الجاهلي، والنضج الذي صاحب اللهجة القرشية حتى أضحت الأداة المعتمدة في إنشاء شعر تلك الحقبة وروايته.

لو أن أحدًا من المشتغلين بالأدب سمع هذه العبارات: " وأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك، أو قل ألح عليَّ الشك، فأخذتُ أبحث وأتدبَّرُ حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينًا فهو قريب من اليقين، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرًا جاهليًا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام. فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهلية"(١)، لعرف من صياغة هذه العبارات، التي هي أقرب إلى ما يعرف بأسلوب السهل الممتنع قائلها ولم يتردد في نسبتها إلى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين.

ومع الإعجاب الذي تحتفظ به أجيال متلاحقة في عالمنا العربي للدكتور طه حسين و(أيامه) و(حديث أربعائه)، إلا أن القضية قد أثارها من قبله نفر من المستشرقين الذين ــ وإن أسهم بعضهم إسهامًا كبيرًا في خدمة الأدب العربي نشرًا وتحقيقًا ــ إلا أن بعضهم لم يتخلص من تحيزه، أو من الخلفية الدينية والفكرية التي انطلق منها في النظر إلى التراث العربي كافة والشعر العربي جزء منه. وفي مقدمة هذا النفر ذي النظرة المتحيزة يبرز اسم المستشرق البروفيسور دافيد صمويل مرجليوث " ١٨٥٨ م ــ ١٩٤٠م "(٢).

ويذكر الباحث العربي المتخصص في الأدب الجاهلي الدكتور يحيى الجبوري أن مقالة مرجليوث الموسومة (أصول الشعر العربي) The Origins of Arabic Poetry التي نشرها في عام ١٩٢٥م. كان لها أثر كبير في فكرة الانتحال، ومحفزة للدكتور طه حسين خاصة في كتابه (الشعر الجاهلي)، ثم (الأدب الجاهلي)(٣)، وما أعقب ذلك من مناقشات وردود. ولابد لأي باحث أن

يلاحظ أن مقالة مرجليوث نشرت سنة ١٩٢٥م، بينما أصدر الدكتور طه حسين تلك المحاضرات في كتاب بعنوان (في الشعر الجاهلي) في طبعة لدار الكتب سنة ١٩٢٦م، وكان لتلك المحاضرات صدى كبير لا يزال يتردد إلى اليوم. وإن كان الدكتور عبدالرحمن بدوي يرى أن أول من أثار لغطًا من بين عصابة المستشرقين ـ عن الشعر الجاهلي ـ هو شيخ المستشرقين الألمان" تيودور نيلدكه" في سنة ١٨٦١م، أي قبل الزوبعة التي أثارتها محاضرات الدكتور طه حسين بخمسة وستين عامًا. وقد كان عنوان البحث الذي فتح به نيلدكه قضية الشك في الشعر الجاهلي، (من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم)[٤]. وفي المرحلة الأخيرة من حياة الدكتور عبدالرحمن بدوي، التي تصدى فيها للتحيز الاستشراقي، نجده يصف دراسات المستشرق مرجليوث بأنها " كانت تسري فيها روح غير علمية ومتعصبة، مما جعلها تثير السخط عليه ليس فقط عند المسلمين بل عند كثير من المستشرقين"[٥].

قضية الانتحال في الشعر الجاهلي قد بُحثت من صاحب أول دراسة عربية محضة في نقد الشعر، ونعني بذلك كتاب (طبقات فحول الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي. وإذا كانت الموضوعية هي مما يبحث عنه الإنسان في أي دراسة، فإننا نجد أن ابن سلام يصوغ عبارته عن الشعر الجاهلي صياغة محكمة، حيث يقول: "وقد اختلف العلماء بَعْدُ في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج عنه"[٦].

ولكن ابن سلاّم ربط معرفة منحول الشعر من صحيحه بوسائل وطرق أجمع الناس عليها، حيث قال في هذا الشأن: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما تثقفه العين، ومنا ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان"[٧].

وقول ابن سلام يجعل كل من لا يملك الأدوات أو الوسائل الضرورية لفهم فن الشعر وتذوق القصيد، دخيلاً على هذا الفن وغريبًا على ميدانه. ومن هنا أتت دراسات بعض المستشرقين التي تفتقر إلى الحد الأدنى من المعرفة باللغة العربية وخصائصها وأسلوب البيان العربي. ويمكن القول: إنه إن أراد باحث دراسة الأدب اليوناني القديم فلابد له من دراسة اللغة التي كتب بها هذا الأدب، وإجادتها إجادة تامة، حتى يمكن من إبداء الرأي في أساطير اليونان وملاحمهم الشعرية المعروفة، مثل الإلياذة(٨) وسواها.

أنشئ الشعر العربي القديم باللهجة التي اصطلحت القبائل العربية الشمالية على اتخاذها أداة لغوية فصحى، يستخدمونها على اختلاف قبائلهم وتباعدهم، وتقاربها لنظم شعرهم، وكان هذا الاتفاق، كما يذكر الدكتور شوقي ضيف، سببًا وراء اختفاء جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها، فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلاً(٩).

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه: إذا ما كان العرب على هذا القدر الكبير من الحس اللغوي بحيث يستبدلون لغة أو لهجة بأخرى، فهل يمكن اعتبارهم في مجملهم من الأميين؟

للإجابة عن هذا السؤال، نجد أن بعض الباحثين، أمثال نجيب البهبيتي(١٠) والمستشرق نيكلسون(١١)، يذهبون إلى أن العرب لم يكونوا أميين – يومًا – ولكنهم كانوا قومًا يصطنعون أنواع الكتابة التي أوجدوها هم، أو أوجدها أبناء عمهم من الساميين، فكانوا يبدلون علم الأيام كتابة بكتابة تترك القديمة مكانها للجديدة، وهل يمكن أن تخاطب أمة في قرآنها بمثل ما خوطبت به هذه الأمة لو كانت من الأمية بالمنزلة التي يحاول المؤرخون المتأخرون أن يصوروها في جاهليتها"(١٢)؟

ومن ناحية أخرى فإنه لا يمكن تصوَّر أن اللغة التي اتخـذها القرشـيون وسيلة لتخاطبهم، ومن ثَمَّ دُوِّنَ بها الأدب الذي انحدر إلينا من العصر الجـاهلي قد تطورت أو ارتقت بين عشية وضحاها، فلابد أن هذا التطور أو ذلك الارتقاء قد مَرَّ بمراحل عدة حتى استوت اللغة، وبلغت مستوى راقيًا مكن لها هذا الذيوع والانتشار. ويرجع بعض مؤرخِّي اللغة هذا التطور إلى ثلاث مراحل:

التهذيب الأول

يرجع إلى عهد إسماعيل عليه السلام؛ فقد حدث اخـتلاط بـين العربيـة والعبرية فترقت العربية.

التهذيب الثاني

عهد تشعب القبائل العدنانية من ذرية إسماعيل عليه السلام؛ فإن هذه القبائل لما تباعدت بطلب العيش كثرت علاقاتها، واتسعت دائرة معاملاتها، وطاوعتهم اللغة بما فطرت عليه من قبولها للترقي وصلاحها للاتساع.

التهذيب الثالث

اختصت فيها قريش بتهذيب اللغة؛ فإنها لما كانت قائمة على سدانة الكعبـة ومثابة للقبائل العربية كافة، فقد يجتمعون في موسم الحج فيتعارفون ويتعاملون. وكانت قريش تقوم منهم مقام المضيف، فتسمع من لهجاتهم ما لم يتسن لسواها، فكانت تأخذ ما رقّ من مشهور تلك اللغات.

وكانت قريش ترحل إلى الشام واليمن وفارس والحبشة للاتجار، مما شجع لها بدوام التهذيب لأسلوبها. ومن العوامل التي أثرت في تهذيب اللغة في هـذا الدور: تلك الأسواق التي كانت تقيمها العرب للتعامل والتفاخر، وتناشد الأشعار، ولسوق عكاظ بين نخلة والطائف تاريخه الحافل[١٣]:

ومع أنه كان لكل قبيلة من قبائل العرب، عند ظهور دين التوحيد، لهجتها الخاصة بها، فلربيعة في شمال الجزيرة العربية لهجة، ولتميم وقيس ومن انضاف إليهما في وسط الجزيرة لهجة، ولكنانة وهذيل وثقيف وخزاعة وأسد وضبة من عرب الحجاز وتهامة لهجة، فضلاً عن لغة اليمنيين في جنوب الجزيرة. وكانت لهجة القبيلة الواحدة تفترق عن لهجة غيرها في مادة اللغة وفي كيفية النطق بها؛ فكان نزول القرآن بلهجة قريش، مما مكن لها بلوغ مرتبة السيادة على جميع لهجات العرب الأخرى(١٤).

وهذا ما وَحَّدَ العَرَبُ مَرَّةً أُخْرى، بعد أن اختار القرآن لهجة قريش دون اللهجات الأخرى.

الشعر في البيئة المكية في العصر الجاهلي بين الندرة والوفرة

عقد ابن سلام الجمحي في كتابه القيم (طبقات فحول الشعراء) فصلاً خاصًا بـ (شعراء مكة)، واستهل الحديث بأبرعهم شعرًا من أمثال: عبدالله بن الزِّبَعْرى، وأبي طالب بن عبدالمطلب، والزبير بن عبدالمطلب، وأبي سفيان بن الحارث، ومسافر بن عمرو بن أمية، وضرار بن الخطاب الفهري.

ووصف ابن سلام أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر جيد الكلام، وعدّله قصيدته التي مدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ربيع اليتامى، عصمة للأرامل

ومعلوم أنّ لأبي طالب قصائد أخرى يجسد فيها محبته لابن أخيه، وخصوصًا تلك الأبيات التي يدعو فيها النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بدعوته. يقول أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أو سد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة.   وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصح   ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت دينًا قــد علمــت بأنـــه من خيـــر أديــان البريــة دينــا
لولا الملامـــة أو حِـذَاري ســبة لوجدتني سمحًا بــذاك مبينــا[١٦]

هناك أبيات ذاعت على ألسنة الناس لما تتــضمنه مــن تجاريــب الحيــاة وحكمها، مثل قول الزبير بن عبدالمطلب:

وإن باب أمــر عليــك التــوى فـــشاور لبيبًــا ولا تعـــصه[١٧]

ومما ينسب لعبدالمطلب بن هاشم قوله:

نحـــــن آل الله فـــــي ذمتـــــه لم تزل فينا علــى عهــد القــدم
لـــم تـــزل لله فينـــا حرمـــة يدفــع الله بهــا عنا النقـــم[١٨]

وتدل هذه الأبيات على الإيمان الفطري الذي يتبطن نفوس شــعراء مكــة، وخصوصًا أولئك النفر الذين كان لهم دور رباني في رعاية الرسول صـــلى الله عليه وسلم في مهده، والذود عنه قبل نزول الوحي، وبعد أن خصه الله بالرسالة الخاتمة لجميع الأديان.

إلا أن سؤالاً ألح على بعض من تصدوا لدراسة الشعر الجاهلي وهـــو: إذا كانت البدايات الأولى للشعر العربي كما يذكر نيكلـسون حــوالي ٥٠٠م، وأن الشعراء العرب استمروا في نظمهم لهذا الشعر، الذي جرى ضــمنًا أن تكــون اللغة التي ينشأ بها هي لغة قريش، إلى ما قبل هجرة الرسول صـــلى الله عليـــه وسلم إلى المدينة حوالي ٦٢٠م [١٩]، فهل كانت البدايات الأولى تــستخدم لغــة قريش كي يستخدمها اللاحقون من شعراء العصر الجاهلي بعد ذلك ؟

يرى الباحث العربي الدكتور يحيى الجبوري أن " ما بأيدي الــرواة مــن الشعر الجاهلي يرقى عهده إلى مائتي سنة على الأكثر اعتمــادًا علــى روايــة للجاحظ[٢٠]. ومن أشهر ذلك الشعر الذي نُظم باللغة القرشية المعلقــات، التــي اختلف الدارسون في عددها وسبب تسميتها[٢١]، مع وجود هذه الآثار الــشعرية

في العصر الجاهلي، وتناقلها شفهيًا بلغة قريش، إلا أن قريشًا كانت قليلة في شعرها مقارنة ببيئة يثرب آنذاك ويعلل ابن سلاَّم هذه القلة في شعر القرشيين " على أنه لم يكن بينهم نائرة ــ أي حقد وعداوة ــ ولم يحاربوا " [٢٢]. كما يذكر الجبوري " أن قريشًا كانت تضرب على أيدي شُعرائها الهجائيين من أمثال عبدالله الزبعري، وتنكر أن يهجو بعضها بعضًا"[٢٣]. ولكن هل لأن قريشًا تحرص على علاقاتها مع الآخرين، وخصوصًا لجهة مصالحها التجارية التي كانت تضرب من أجلها أكباد الأبل بين الشام واليمن في رحلتي الشتاء والصيف. هل هذه العلاقة ومبدأ الحفاظ عليها كانت سببًا وراء ذهاب بعض الدارسين من أمثال الدكتور فضل العمَّاري في دراسته عن الشعر المنحول " بأن قريشًا بالذات قبيلة قليلة البضاعة في الشعر"[٢٤] ؟ أم أن الأمر له وجوه أخرى من مثل أن الشعر كان يزدهر في العصر الجاهلي في البيئات ذات الطابع القبلي، ويضربون لذلك مثلاً بقبيلة ربيعة التي ورثت الشعر عن القبائل اليمنية، فظهر في بيئة نجد شعراء كثير من أمثال المهلهل، وطرفة، والمتلمس وسعد بن مالك، والمسيب والأعشى، والحارث بن حلزة؛ ثم انتقل باعث الشعر إلى قيس غيلان التي ظهر فيها شعراء من أمثال النابغتين وزهير بن أبي سلمى وابنه كعب وعنترة، ولبيد والحطيئة، ثم استقر ــ أي الشعر ــ في نجد، ومن شعرائها أوس، أما المدن فذهب هؤلاء الباحثون إلى أن شعراءها قليل[٢٥] ومن أشهرهم حسان بن ثابت الذي عرف بعد الإسلام بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم.

أطلق ابن سلام في (طبقاته) على بيئات المدينة، ومكة والطائف، واليمامة والبحرين، مصطلح القرى العربية وجعل أشعرها بيئة المدينة، ومع وفرة الشعر في المدينة، في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام، فإن العرب كانت تحتكم لذائقة قريش ــ التي كان ينشأ الشعر بلغتها. وكان للأسواق التي يحضرها العرب جميعًا من مثل عكاظ ومجنة وذي المجاز التي كانت تعقد مستهل شهر ذي القعدة، وتستمر إلى العشرين منه وبقيت إلى الإسلام[٢٦]، كان لها أثرها

الكبير لغويًا وأدبيًا. ويروى أن المعلقات أنشدت في عكاظ، وإن قس بن ساعدة المتوفى سنة ٦٠٠م خطب فيها خطبته المشهورة فذكرهم بالله والموت، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يَسْمَعُ له وأثنى على خطبه[٢٧]. وأن مرثيات الخنساء كانت تجد آذانًا صاغية هناك، ومن هنا اكتسبت شهرتها وذيوعها، حتى رُوي عن النابغة الذبياني ــ الذي كان يحتكم الشعراء إليه في قصيدهم ــ أنه قال بعدما أنشدته الخنساء شيئًا من شعرها ": والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفًا لقلت إنك أشعر الجن والإنس".

فهل[٢٨] تفسير ندرة الشعر في القبيلة التي فرضت لسانها على القبائل الأخرى إلى أنها اكتفت بهذه المنقبة، ونعني بها إنشاد الشعر بلغتها من قبل الآخرين ؟ وأن الفيصل فيما يقوله العرب شعرًا ونثرًا هو مدى قوة بيانه وإحكام بنيانه وِفْقًا للمدرسة القرشية، ولكن يبدو أن بيئة قريش استجدت فيها بواعث جديدة بعد الإسلام بعد أن كانت خلوا، كما يذكر الدكتور عمر الدسوقي، من الشعراء المجيدين[٢٩]؛ فقد حققت مع بروز شخصية عمر بن أبي ربيعة ٩٣/١٣هـ ــ ما كانت تفتقد من نشاط فني. ويرى الدكتور شكري فيصل أن هذا البروز مرده إلى التلوين الجديد الذي خالط حياة الحجاز خاصة والحياة الإسلامية بوجه عام، وحياة قريش بوجه أخص"[٣٠]، وإن كان الدكتور شوقي ضيف يربط تحديدًا بين بروز عمر بن أبي ربيعة في البيئة الحجازية بوصفه شاعرًا متفردًا وخصوصًا في فن الغزل، وبين بواعث الغناء التي انتشرت في تلك الحقبة، فابن مسجح والغريض في مكة يلزمونه ويغنونه في شعره، ويجد صدى شعره في المدينة عند معبدوجميلة، ولعل كثرة شعره المقترنة بالجودة كانت سببًا في ذلك والبعض يعتبر أن " ابن ربيعة خلف أضخم ديوان لا في عصره فحسب بل في جميع العصور العربية " [٣١]. ولعل هذه الكثرة قد أوجدت شيئًا من التوازن بين ندرة الشعر في البيئة المكية في العصر الجاهلي، وكثرته على يد ابن أبي ربيعة، وعبدالله بن قيس الرقيات في العصر الإسلامي[٣٢].

العلاقة الوثيقة بين الشعر والتاريخ

الأدب العربي في العصر الجاهلي ـ كأدب أي أمة أخرى ـ استخدم القصائد سجلات للتاريخ، التي تمثل أيام العرب التي حفلت بحوادث مهمة كيوم ذي قار، الذي اقتتل فيه العرب مع الفرس، أو ما كان بين النزاريين واليمنيين كيوم خزازي، أو ما كان بين اليمنيين بعضهم مع بعض كيوم (بُعاث) بين الخزرج والأوس، أو ما كان بين ربيعة بعضهم مع بعض كحرب البسوس بين بكر وتغلب، أو ما كان بين المضريين كحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، فهذه الحوادث تمثل معينًا ثرًّا للشعر العربي في تلك الحقبة. وكانت تلك الأيام أكبر ميدان تتسابق فيه العقول والبلاغات والملكات[٣٣]. كما أن بعض قصائد المعلقات، مثل معلقة زهير بن أبي سُلْمى، نقلت إلينا بعض الأمور التاريخية، حيث يمدح زهير بعض الرجال لسعيهم في إقرار السلم بين قبيلتين متحاربتين وتحملهم المغارم في ذلك [٣٤]. وتختلف الآراء النقدية حول تصنيف قصيدة مثل قصيدة زهير: هل هي قصيدة قاصة أو ما يطلق عليه مصطلح ballad [٣٥] أم أنها قصيدة تعليمية؟

يمكن تصنيف القصيدة التي تعتمد على التاريخ من نواح فنية من خلال القالب الأدبي الذي تمت فيه صياغة القصيدة " وأدنى معالم هذا القالب هو معلم الأسلوب وذلك أن يعرض التاريخ بلغة أدبية جذابة شائقة، مؤثرة، ممتعة"[٣٦]، وبالتالي يمكن القول بعد توضيح دور الأسلوب في القصائد المرتبطة بالتاريخ " بأن الأديب لا يقصد إلى تعليم التاريخ وتوصيل حقائقه إلى القراء وإنما يتخذ الشكل القصصي لكي يحيط هذا التاريخ بإطار يجعل مادته جذابة وشائقة... بعيدة عن جفاف العلم قريبة من شفافية الفن"[٣٧].

بهذا فإننا سوف نعرض من خلال الشعر لبعض الحوادث التي شهدها المجتمع المكي قبل البعثة وبعدها، مستهدين في هذا العرض التاريخي الأدبي بكتب السيرة والمغازي، حتى نكون من خلال هذا العرض صورة واضحة

المعالم لما كانت عليه حالة المجتمع المكي قبل البعثة النبوية وبعدها، ومحاولين أن نتتبع الآثار التي تركتها هذه الحوادث على النفس الإنسانية؛ فانعكاس هذه الآثار وما تركته أو خلفته من آثار هو الدافع لدى المشتغلين بالأدب وقضاياه عندما يرجعون إلى التاريخ، أو يحاولون الوقوف على بعض أحداثه، خصوصًا الأحداث ذات الأهمية البالغة في تحديد مصائر المجتمع وتكوين بنيته.

حوادث تاريخية مكية وشواهدها الشعرية

من أهم الحوادث التاريخية التي ارتبطت بالمجتمع المكي قبل البعثة:

أ ــ حادثة الفيل

وهي التي حاول فيها أبرهة الأشرم ــ عامل النجاشي على اليمن ــ هدم الكعبة لدوافع دينية. حيث تذكر بعض كتب السيرة أن بعضًا من أبناء قريش نزلوا بجوار بيعة الحبشة، فاحترقت، وظن الحبشة بالعرب الظنون، وأرادوا الثأر لبيعتهم (معبدهم) وعرفوا أن الكعبة هي هيكل العرب ومعبدهم المقدس، فأرادوا تخريبها إما لدوافع سياسية أو اقتصادية. فالحبشة قوم متغلبون على القطر العربي اليمن يحكمونه وهم أجانب عنه لا يطمئنون إلى أهله،ويتوجسون خيفة من اجتماعهم بإخوانهم عرب الشمال في أرض الحجاز، فلما رأوا رحلات أهل اليمن في مواسم الحج خشوا مغبة ذلك على اقتصادهم، فأرادوا أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات، فبنوا كنيستهم ليحج الناس إليها ويتحول اقتصاد الجزيرة وتجارتهم في مواسمها إلى بلادهم[٣٨].

سار أبرهة عامل النجاشي على اليمن إلى مكة، وكعادة أي غازٍ ومُستعمر استولى جيش أبرهة على أموال أهل مكة، وكان من بينها مئتا بعير لعبدالمطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فدخل على أبرهة في معسكره[٣٩]، يطلب استرداد ماله، وقال لأبرهة قولته المشهورة " أيها الملك إنما أكلمك في مالي ولهذا البيت رب هو يمنعه، لست أنا منه في شيء"[٤٠].

ورووا أنه لم يبق بمكة بعد أن خرج أهلها إلى رؤوس الجبال أحد إلا عبدالمطلب بن هاشم أقام على سقايته، وغير شيبة بن عثمان بن عبدالدّار أقام على حجابة البيت، فجعل عبدالمطلب يأخذ بعضادتي الباب ثم يقول:

لا همَّ إنَّ المـرء يمـ *** ـنع رحْلَهُ فامنـع رحالك
لا يغلبـوا بصليبهـم *** ومحالهم غدوا محـا لك(٤١)

والأبيات تعبر عن إيمان فطري وتسليم بالقضاء والقدر، وفيها دلالة على أن بعض القرشيين كانوا على الحنيفية، أي الدين الذي كان عليه أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام. وعبدالمطلب كان على أمر السقاية، وهو الذي أخذ على نفسه حفر بئر زمزم بعد أن انطمرت، وهو جد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو من النفر الذين تدل عباراتهم وسيماهم على صفاء نفوسهم ونقاء سريرتهم، وفيها إشارة من إيراد كلمة " الصليب" على أن حملة أبرهة على مكة كانت على خلفية دينية نصرانية.

لقد حمى الله بيته ونصر جيرانه، بأن أرسل عليهم طيرًا يجيئهم جماعة في إثر جماعة، ترميهم بحجارة فأصابت مقاتلهم وخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك، وأصيب أبرهة فجعل جسمه يتناثر حتى انصدع صدره فمات بصنعاء(٤٢).

وما كان لحادثة الفيل وهزيمة أبرهة لتمر دون احتفاء، وذكر وإشادة، فهذا الشاعر المكي المعروف عبدالله بن الزِبَعْرى بن عدي بن قيس بن عدي الفهري، يرفع صوته واصفًا ما جرى فيقول:

تنكلـوا عن بطن مكة إنهـا *** كانت قديمًا لا يرام حريمهـا
لم تخلق الشِّعري لياليَ حرمت *** إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى *** ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستـون ألفًا لم يئوبوا أرضهم *** ولم يعش بعد الإياب سقيمهـا
كانت بها عاد، وجرهم قبلهـم *** والله من فوق العباد يقيمها(٤٣)

إن نظرة سريعة على هذه الأبيات التي أنشأها أحد أشهر شعراء قريش في العصر الجاهلي يمكن أن تعطي جملة من الانطباعات، وتتمثل في:

وضوح المعاني التي تضمنتها الأبيات، وهي معانٍ أدركها القرشيون بالفطرة، منزلة البيت عند الخالق ــ عز وجل ــ وأن الله متكفل بحفظه، ثم الإشارة إلى الجيش الكبير الذي لقي مصرعه إثر محاولته هدم الكعبة، وإن الذين ظنوا أنهم نجوا من العقاب لقوا العاقبة نفسها بعد وصولهم إلى ديارهم، ويختم الشاعر أبياته بالإشارة إلى الأمم التي سكنت مكة من قبل ثم أفناهم الخالق. وكأنه يقول: إن الأمم ينقضي وجودها على هذه الأرض ولكن البيت يبقى على مر العصور شاهدًا حيًا على عظمة الله وقدرته على حماية مشاعره من المتربصين بها، كما أن الشاعر استخدم ألفاظًا سهلة، وربما كان مرد هذه السهولة إلى أن غرض القصيدة يختلف عن الأغراض الأخرى التي ينظم في موضوعاتها شعراء الجاهلية ــ وهي تتطلب تعديلاً وتنقيحًا كما هو الشأن في حوليات زهير والنابغة وعلقمة الفحل وطرفه والمتلمس(٤٤) ــ، فذلك الضرب من الشعر ــ من حيث أغراضه ومعانيه وبنيته الفنية ــ يختلف عن هذا الغرض الذي عمد الشاعر إلى إبرازه بهذه الصورة الميسّرة، والمعبرة عن أحاسيس النفس إزاء البيت الحرام، الذي يعتبر محور حياة القرشيين. كما أن من يتلقون هذا الإبداع هم عامة الناس وليسوا خاصتهم. وهم الذين يجتمعون في المنتديات أو الأسواق المخصصة لإلقاء الشعر والإنصات إليه، والاحتكام فيه إلى النقاد وأصحاب الذائقة الشعرية الرفيعة.

تختلف ردود الشعراء المكيين والمدنيين الذين روي لهم شعر عن الحادثة التي ظل أثرها في الشعر العربي حتى بعد ظهور الإسلام. فالشاعر همام بن غالب (وهو الفرزدق) من بني مجاشع أشار في قصيدة له يمدح فيها الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك بن مروان، ويعرض بالحجاج بن يوسف ويهجوه، أشار هذا الشاعر إلى واقعة الفيل قائلاً:

فلما طغى الحجاج حين طغى به غنى، قال إني مرتق في السلالم
فكان كما قال ابن نوح سأرتقي إلى جبل من خشية الماء عاصم
رمى الله جثمانه مثل ما رمى عن القبلة البيضاء ذات المحارم
جنودًا تسوق الفيل حتى أعادهم هباء وهانوا مطرخمي الطراخم
نصرت كنصر البيت إذ ساق فيله إليه عظيم المشركين الأعاجم(٤٥)

فالأبيات وردت في سياق التدليل على الطغيان ومصير الجبروت، بل إن كلمة مثل (رمى) في البيت الثالث من هذه المقطوعة الشعرية تدل على تأثر الشعراء بآيات القرآن الكريم فيما ورد وحيًا عن صفة العذاب الذي ناله أصحاب الفيل رميًا من حجارة من سجيل، والأبيات تؤكد على أن عملية الإبداع الشعري يتأثر فيها الحاضر بالماضي والشاهد بالغائب. ويمكن لشعراء متأخرين أن يعملوا قرائحهم الشعرية ويتخيلوا من الصور ما يساعدهم على رسم المشهد الشعري، الذي يعيد المتلقي إلى أحداث الماضي وصوره، ويحملهم على الربط بين الأحداث التي تتشابه كليًا أو جزئيًا.

ب ـ مولد النبي صلى الله عليه وسلم

تشاء قدرة الله تعالى أن يولد الرسول صلى الله عليه وسلم في العام الذي نصر الله فيه قريشًا على أبرهة الحبشي وجيشه. ومع أن أصحاب الشعر اتفقوا على عام ولادته بما أطلقوا عليه عام الفيل، وهو كما يرى الشيخ محمد صادق عرجون أنه يوافق تاريخيًا سنة ٥٧٠ بالتاريخ الميلادي(٤٦).

وكتب السيرة القديمة تشير إلى أن شهر ربيع الأول من ذلك العام، هو التاريخ الذي أسفر فيه صباح طلعة خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه صلاة الله وسلامه، على هذه الدنيا، ولكنهم يختلفون في اليوم تحديدًا، أو تعيينًا(٤٧). ويرى عرجون: أن تقصي الأخباريين عن سنة وشهر ويوم ولادته يدل على ناحية مهمة وهو أنه قد توافر عن حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم ما لم يتوافر

في سيرة شخصية من شخصيات الأنبياء والمرسلين والقديسين والقادة المصلحين.

روى بعض أصحاب الشعر أبياتًا لجده عبدالمطلب الذي سبق أن ذكرنا له شعرًا يلوذ فيه بالخالق عندما قدم أبرهه بجيوشه لهدم الكعبة، وقد أنشد عبدالمطلب هذه الأبيات عندما أدخل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو طفل في المهد، جوف الكعبة، فقام عندها يدعو ويشكر الله ويقول:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى يكون بلغة الفتيان حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من كل شنآن من حاسد مضطرب العنان
ذي همة ليس له عينان حتى أراه رافع اللسان(٤٨)
أنت الذي سميت في القرآن في كتب ثابتة المثاني(٤٩)
أحمد مكتوب على البيان(٥٠)

وإذا ما أخذنا ما رواه ابن كثير في سيرته المعتمدة بأن آمنة بنت وهب والدة النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرت جده بما رأته من البشائر مدة حملها به(٥١).

فلاغرابة أن نجد أبيات جده عبدالمطلب، التي يدعو الله عز وجل فيها بالفطرة، تتضمن وما يتفق مع تلك البشائر بأن يحفظ هذا الحفيد ويعلي من شأنه. ولعله مما يلفت النظر ما ورد في الشطر الثاني من البيت قبل الأخير ــ حيث أنشد: " حتى أراه رافع اللسان"، فهو يدل على أهمية فصاحة اللسان عند قبيلة قريش، وما علم جده وهو يدعو له ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهذا الدعاء أنه سوف يكون أفصح العرب، وأن الله سوف ينزل عليه المعجزة الخالدة التي تحدت جميع قبائل العرب، سابقًا ولاحقًا، إعجازًا وفصاحة وبيانًا.

ولعل فطرة عبدالمطلب التي دفعته لأن يرى في ولادة حفيده الذي فقد أباه وهو في مطلع العُمْر ـ بعد أن فداه بمائة من الإبل[٥٢] ـ يرى في تلك الولادة خيرًا ورفعة، فقال هذه المقطوعة فطرةً (وهي من بحر الرجز). وكان الجاهليون ينظمون المقطوعات القصيرة على إيقاع هذا البحر، وكثير منها لم يدون، ولولا صلة هذه المقطوعة بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، لضاعت كما ضاع سواها. ومع أن بعضهم يرى أن الرجز هو ديوان العرب في الجاهلية والإسلام، فإن آخرين لا يرون فيه أكثر من مطية للشعر، ووسيلة سهلة لتدوين الأدب الشعبي[٥٣]، وما دام أنه لم تصل إلينا قصائد طويلة تنسب لعبدالمطلب، فما أنشده يوم واقعة الفيل يتفق في مساره مع ما أنشده عند ولادة النبي صلى الله عليه وسلم، أي أنه وليد اللحظة الآنية التي تعبر سليقة عن مشاعر الشاعر وأحاسيسه إزاء حادث بعينه أو واقعة محددة[٥٤].

ج ـ حديث ورقة بن نوفل[٥٥]

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة بنت خويلد، وكانت امرأة ذات شرف ومال وجمال، وكانت قد سمعت عن أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالٍ لها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطيه غيره من التجار مع غلام لها اسمه ميسرة. فلما عادا إلى مكة، أخبر ميسرة ما رآه من بعض المعجزات التي خص بها الرسول صلى الله عليه وسلم. فأرسلت إليه ثانية مبينة رغبتها في قربه لأمانته وحسن خلقه وصدق حديثه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعمامه بذلك فخطبها له عمه حمزة بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ فتزوجها، فولدت له جميع أبنائه عدا إبراهيم[٥٦]. فلما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، عاد إلى زوجته خديجة ليخبرها بالأمر، فأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى، وكان حنيفيًا، لتستعلمه وتسأله

عما عسى أن تجد له عنده تفسيرًا مطمئنًا. فلما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى، قال له ورقة: " هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجيَّ هم ؟ قال نعم: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[٥٧]، وأنشد قصيدته التي أزعجت كفار قريش وأثارت الرعب في نفوسهم، وهي التي اشتهرت في أوساط المجتمع القرشي ــ آنذاك ــ بالجيمية.

لججت وكنت في الذكرى لجوجا   لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصفٍ   فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي   حديثك أن أرى منه خروجا
بما أخبرتنا من قول قس   من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمدًا سيسود فينا   ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور   يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خسارا   ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتني إذا ما كان ذاكم   شهدت فكنت أولهم ولوجا
ولوجًا في الذي كرهت قريش   ولو عجت بمكتها عجيجا
أرجي بالذي كرهوا جميعًا   إلى ذي العرش أن سفلوا عروجا
وهل أمر السفالة غير كفر   بمن يختار من سمك البروجا
فإن يبقوا وأبق تكن أمور   يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى   من الأقدار متلفة حروجا[٥٨]

وبالربط بين قول ورقة السابق لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا". وقصيدته الجيمية التي يتهدد فيها الكافرين تهديدًا قويًا ومرعبًا مثيرًا بذلك الفزع في قلوبهم، ومقلقًا لأنفسهم، كما

أنه ــ أي ورقة ــ يلوح لهم من خلال أبيات هذه القصيدة بشديد الانتقام فيما لو حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أزعجوه، استدل بعض الباحثين، من خلال ذلك كله، على كامل إيمانه برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصادق متابعته له تحقيقًا لخالص إيمانه إلى الآية الذي جاءهم به من عند الله تعالى[٥٩]:

وفي قول ورقة: " فقد طال انتظاري يا خديجا" مخاطبًا السيدة خديجة رضي الله عنها، التي نقلت له صورة عما أخبرها به خادمها ميسرة من خوارق عادات حدثت في أثناء رحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام، وحديث الراهب الذي أسر به إلى ميسرة إضافة إلى ما سمعه ورقة مشافهة من الرسول صلى الله عليه وسلم عن كيفية ما نزل به الملك الكريم من وحي على قلبه الشريف، من كل ذلك نتعرف على الشوق الذي كان يسيطر على نفوس الحنفاء، وهي تسمية لهم باسم دينهم الذي اتبعوه دين اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، القائم على التوحيد الخالص لله تعالى. وكان من هؤلاء الحنفاء زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، الذي توفي قبيل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقس بن ساعدة الإيادي، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وعامر بن الظَّرْب العدواني، وعبدالمطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم ــ الذي كان يأمر ولده بترك البغي، والظلم، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن سفاسف الأمور[٦٠]. ونلاحظ في جيمية ورقة تبرمًا من الوضع الديني الوثني الذي كان موجودًا في المجتمع المكي قبل الرسالة؛ لذا فهو يجدّ باحثًا عن الضياء أو النور أو الاثنين معًا، بعضهم يرى أن النور هو الأصل للضوء[٦١]، ولكن استخدام الشاعر للكلمتين معًا. يدل على أنه ظلمة استولت على النفوس، وهذه الظلمة هي التي عبّر عنها بكلمة " السفالة" ــ التي هي نقيض العلو سببها " الكفر" ببارئ الكون، وربما أتت كلمة " سمك " التي تعني علا وارتفع لتدل على الإيمان الذي يجد الحنفاء في البحث عنه، ومنهم ورقة الذي أدرك أن طلائعه بدأت بعد سمع من خديجة وبعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويبدو أن ورقة كان عارفًا

بطبيعة النقلة الصعبة، التي سوف يمر بها المجتمع من الكفر إلى الإيمان والتي عبر عنها بالضجيج الذي سوف يحدثه القوم إزاء الدعوة الجديدة.

ويبدو أن استبطاء ورقة لانبثاق النور السماوي الجديد قد سيطر على شعوره، وربما كان مرد ذلك إلى إحساسه بدنو أجله، قبل أن يرى انتشار الديانة الحنيفية التي آمن بها فطرة مع بعض نفر من رفاقه في المجتمع المكي، والتي يشير ورقة إلى أنبيائها السابقين صراحة بأسمائهم في قصائده. ولربما كان هذا النفر، لقلته، يشعر بوطأة الفكر الجاهلي السائد آنذاك، وعدم قدرة هذه القلة على مقاومته، وأن الأمر يحتاج إلى معجزة إلهية وهو ما يعول عليه في أخبار خديجة وحديث محمد صلى الله عليه وسلم. يقول ورقة معبرًا عن تلك المشاعر في أبيات أبعد ما تكون عن الغموض لانبثاقها عن الفطرة الصافية، التي رأينا شيئًا منها في أشعار عبدالمطلب وأبي طالب.

أتبكر أم أنت العشية رائح ... وفي الصدر من إضمارك الحزن قادح
لفرقة قوم لا أحب فراقهم ... كأنك عنهم بعد يومين نازح
وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصح
فتاك الذي وجهت يا خير هرة ... بغور وبالنجدين حيث الصحاصح[٦٢]
إلى سوق بصرى في الركاب التي غدت ... وهن من الأحمال قعصٌ دوالح
فخبرنا عن كل خير بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتح
بأن ابن عبدالله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظني به أن سوف يبعث صادقًا ... كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يرى له ... بهاء ومنشور من الذكر واضح
ويتبعه حيّا لؤي جماعة ... شبابهم والأشيبون الجحاجح
فإن ابق حتى يدرك الناس دهره ... فإني به مستبشر الود فارح
وإلا فإني يا خديجة فاعلمي ... عن أرضك في الأرض العريضة سائح[٦٣]

د ـ الدعوة إلى الإسلام وبداية المواجهة

كانت الدعوة في بدايتها سرية، حتى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بما جاء به، وأن ينادي الناس بأمره، وأن يدعو إلى الله تعالى حيث نزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين"، وقال تعالى: " وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين"[٦٤].

وواجه الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحابته رضوان الله عليهم عنتًا في تبليغ الدعوة، ولم يلتفت إلى الممانعة التي كانت أمرًا طبيعيًا يحدث في مجتمع تحكمت فيه العادات الجاهلية. ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعيب آلهتهم وأن عمه أبا طالب قد وقف إلى جانبه، مشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب يشكون إليه سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، وخيروه بين أن يوقف ما اعتبروه تهجمًا على ديانتهم الوثنية، أو يخلي بينهم وبينه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا وردهم ردًا جميلاً، فانصرفوا عنه. ولم يكن أمام أبي طالب الذي رأى أن الصراع اشتد بين الحق والباطل. إلا أن يلجأ إلى تذكير قومه بالحلف الذي كان بين بني هاشم وبني المطلب حتى يقفوا في وجه العنت الذي لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، رضوان الله عليهم. وكان الشعر خير وسيلة لتحقيق مطلب المنعة لابن أخيه، مشيرًا إلى الصفات والأخلاق الحسنة التي كان يتمتع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قومه، ومذكرًا بأن قريشًا كانت تمنع الظلم عن الأباعد، وأن العرب تدين لها بما سلكته من دروب الخير والإحسان والفضل، فقال مادحًا:

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخر فعبدمناف سِرُّها وصميمها
فإن حصلت أشراف عبدمنافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
فإن فخرت يومًا فإن محمدًا هو المصطفى من سِرِّها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديمًا لانقر ظلامةً إذا ماثنوا صعر الخدود نقيمها

ونحمي حماها كـل يـومٍ كريهـةٍ ونضرب عن أحجارها مـن يرومهـا
بنا انتعش العـود الـذواء، وإنمـا بأكنافنـا تنـدى وتنمـى أرومهـا
هم السادة الأعلون فـي كـل حالـة لهـم صـرمة لا يـستطاع قرومهـا
يدين لـهم كـل البريـة طاعـة ويكر مهم للأرض عنـدي أديمـا[٦٦]

ولكن تذكير قريش، بدفعها الظلم عن الأباعد، فكيف بالأقارب وانقياد الناس لهم لمكارم أخلاقهم، لم يكن قادرًا على منع الظلم الذي بدأ يتزايد على ابن أخيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن اتبعه من المؤمنين، فيشتد غـضبه علـى فرع من فروع قريش وهم بنو لؤي، فإذا هو (أي أبو طالب) يخـاطبهم شـعرًا ويقول:

ألا مبلغـا عنـي لـؤيـا رسالـة، بحق وما تغني رسالة مرسل
بني عمنا الأدنين تيمًا نخصهـم وإخواننا مـن عبد شمس ونوفـل [٦٧]

ويجادلهم فيما رفعوا صوتهم به وهو أن قتل النبي صلى الله عليـه وسـلم سوف يلحق هزيمة ببني هاشم، ناعتًا إياهم بالكذب، ومبديًا ثقته في قـدرة بنـي هاشم على الدفاع عن شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول:

يقولـون: إنـا إن قتلنـا محمـدًا أقـرت نواصـي هاشـم بالتـذلل
كـذبتم وبيـت الله يـثلم ركنـه ومكة والأشعار فـي كـل معمـل
وبـالحج أو بالنيـب تـدمى نحورهـا بمدقاه والـركن العتيـق المقبـل
تنـالـونـه أو تعـطفوا دون نيـلـه صـوارم تفري كل عظم ومفصل

ونلحظ في الأبيات السابقة استخدام أبي طالب في قسمه كل ما يتصل بمكة من مقدسات ومشاعر مثل الركن، وما ينحرونه تقربًـا للبيـت، فـي عـاداتهم الجاهلية، ومنها إشارة لشعيرة الحج التي كانت قائمة في تلك الحقبة، وأن قريشًا كانت تعظم على طريقتها آنذاك كل ما يتصل بالكعبة وحرماتها. وفي هذا دلالة

أيضًا على الإيمان الفطري الذي كان يتعمق نفوس القرشيين على وجه الخصوص بني هاشم.

ويشتد أبو طالب في لغته على القوم الذين لوحوا بقتل ابن أخيه صلى الله عليه وسلم؛ ويرى أن نقل الجبال أهون على الأعداء من التعرض لحياته صلى الله عليه وسلم بأذى. وهذا يدل على أن المعركة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقرابته من بني هاشم وبين الكفار قد بلغت درجة كبيرة من التحدي – وفي هذا دلالة على المنعة التي تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمه أبي طالب.

يقول أبو طالب مبديًا لغة التحدي التي تبدو أن بعض الأطراف لا تفهم سواها:

فإن كنتمو ترجون قتل محمد فروموا بما جمعتم نقل يذبل
فإنا سنحميه بكل طمرةٍ وذي ميعة نهد المراكل هيكل
وكل رديني ظماءٍ كعوبه وَعَضْبٍ كإيماض الغمامة مقصل

وهو يؤكد على أن القسم الذي أداه بنو هاشم في الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو قسم معظم، لأنه صادر عن القوم الذين وطنوا أنفسهم على تجشم المخاطر، مفتخرًا بهم أي افتخار، وجاعلاً منهم خيرة الناس في الوقوف إلى جانب الحق فيقول:

بإيمان شم من ذوائب هاشم مغاويل بالأخطار في كل محفل
همو سادة السادات في كل موطن وخيرة رب الناس في كل معضل(٦٨)

هـ – صحيفة المقاطعة مرحلة أخرى من مراحل الدعوة

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، نزولاً عند أمر النبي صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بأرض الحبشة، ونالوا بها أمنًا وقرارًا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، يضاف إلى ذلك دخول عمر بن الخطاب وحمزة بن عبدالمطلب الإسلام، أجمعت أمرها على كتابة كتاب يتعاقدون فيه

على بني هاشم وبني عبدالمطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعون شيئًا ولا يبتاعون منهم، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة. وبناءً عليه انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبدالمطلب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه[٦٩]...، في تلك الأجواء الشديدة القسوة على بني هاشم، وتحملهم هذا العنت، وما يحمله من دلالة على التضحية التي قدموها لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أهم مرحلة من مراحل الدعوة، نجد صوت أبي طالب يرتفع بالشعر الذي يصل إلى آذان الآخرين، ويتركهم حيارى إزاء ذلك الحب والفداء، الذي كان أبو طالب صادقًا في بذله لابن أخيه عليه صلاة الله وسلامه. يقول شاعر بني هاشم منشدًا في إيمان وثقة شديدين:

ولمّا رأيت القوم لا ود فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قومًا علينا أظنه يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة وأبيض عَضْبٍ من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وأمسكت من أثوابه بالوصائل
وإخوتي قيامًا معًا مستقبلين رتاجه لدى حيث يقضي نسكه كل نافل[٧٠]

فأبو طالب لا يجد بفطرته ملاذًا له ولجماعته من بني هاشم، ضد أعدائهم، سوى التمسك بأهداب البيت، الذي كانوا يقومون بسقاية الحاج فيه ورفادته، ومنع الظلم عن قاصديه، بل إننا نجد أبا طالب يقسم برب الناس، متعوذًا به من كل صاحب سوء ودعوة باطلة. ونجد ترديده لأسماء المواطن المقدسة مثل: الحجر الأسود، ومقام إبراهيم، والصفا، والمروة وغيرها من المواضع:

أعوذ برب الناس من كل طاعنٍ   علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن كل كاشح يَسْعَى لنا بمعيبة   ومن ملحق في الدين ما لم نحاول
وبالبيت ركن البيت من بطن مكة   وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه   إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة   على قدميه حافيًا غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا   وما فيهما من صورة وتماثل
ومن حج بيت الله من كل راكبٍ   ومن كل ذي نذر ومن كل راجل

ونجد أبا طالب يشحذ ذاكرته لصور تقديس الناس للبيت، حيث يقدمون إليه راكبين وراجلين، ويكرر ذكر الشعائر التي كانت العرب في جاهليتها تقدسها على ما خالطها من أفعال وثنية. وجاء الإسلام بعد ذلك ليصححها، ويعود بالناس للمنهج السوي والطريق الصحيح. وربما رمى من وراء تكراره هذا تذكير قريش بدورها الديني، وأن عداءها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبني هاشم هو أمر يهدد وحدتها، ويضعف هيبتها بين الناس الذين كانوا ينظرون إليها بعين الإجلال، وهو يعبر صراحة عن حبه لابن أخيه، ونصرته إياه دون مواربة، مذكرًا بصفاته من حلم ورشد وأمانة وعدل، وهي صفات كانت تقر قريش بها لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول أبو طالب معبرًا عن ذلك الارتباط القوي بينه وبين ابن أخيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه مستعد للتضحية في سبيله:

لعمري لقد كلفت وجدًا بأحمدٍ   وإخوته دأب المحب المواصل
أقيم على نصر النبي محمد   أقاتل عنه بالقنا والقنابل
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها   وزينًا لم ولاه ربُّ المشاكل
فمن مثله في الناس أي مؤمل   إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش   يوالي إلهًا ليس عنه بغافل

وهذه القصيدة قد تجاوزت مئة بيت، وهي تكشف عن شاعرية قوية عند أبي طالب. ولعلنا نلمس من خلال الأبيات التي أوردناها غرضًا من الأغراض التي عرف بها شعراء الحقبة الجاهلية ــ وهي الفخرــ الذي يمثله شعراء من أمثال عنترة وطرفة، حيث تتكرر في أشعارهم معاني البطولة والفحولة والاستبسال، والدفاع عن النفس وتمجيد معاني الفداء والتضحية(٧١)، وإن كان أبوطالب لا يشتط في فخره. وربما يعود ذلك إلى نشأته بجوار البيت، وهو أمر مهم في معرفة بواعث مثل هذا القصيد الذي تفيض به نفسية شاعرنا، حتى أنه ليلوح لمناوئ الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأنه لولا خشية المسبة من الآخرين لكان من أتباع دينه، معللاً ذلك التطلع العميق في نفسه لمثل هذا الاتباع إلى أنه لم يعرف ابن أخيه كاذبًا، وأنه صلى الله عليه وسلم أبعد ما يكون عن سبل الغواية والباطل، بما يعني أنه في قوله صلى الله عليه وسلم رشد، وفي دعوته خير، وفي نوازعه صلاح. ولنستمع إليه وهو يردد هاتفًا بما يعتمل في داخل نفسه إزاء هذا الدين، الذي بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم داعيًا ومبشرًا.

فوالله لولا أن أجيء بسبة تجر على أشياخنا في المحافل
لكنا اتَّبَعناهُ على كل حالةٍ من الدهر جدًا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذبُ لديهم ولا يُعْنى بقول الأباطل

ويستشرف أبو طالب آفاق المستقبل من أن الدين الذي أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف تكون له النصرة في خاتمة مطاف هذا الصراع، الذي يتنبأ أيضًا بحكم تجربته في الحياة أن عنت قريش سوف يجرها إلى منازلة تكون الغلبة فيها لابن أخيه، وأنه يحس في أعماق نفسه بأن الله سوف يرفع أمره ويعلي من شأنه، مؤكدًا ما ذهب إليه في جميع قصائده بأنه لن يتخلى عن نصرته، وأنه سوف يدافع ويذود عنه بنفسه، حتى وإن كان مثل هذا الدفاع يعني نهاية حياته. وهناك فرق بين من يبذل نفسه للأمر متقدمًا الصفوف، وبين من

يدعو الآخرين من بني قومه ليتجمعوا ثم يتركهم وشأنهم. وقد أثبت أبو طالب وفاءه بما وعد به. وذلك عندما عرضت عليه قريش بأن تمنحه خير أبنائهم قوة وجمالاً، ويتخلى عن ابن أخيه فرفض ذلك. ثم أرادوا أن يمتحنوا مرة أخرى وفاءه هو وعشيرته له فقاطعوا بني هاشم جميعًا، فما تزحزح عن وعد قطعه على نفسه قولاً، وجسده فعلاً وسلوكًا، حتى إنه روي أنه لما حضرته الوفاة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب منه أن يلفظ كلمة الإيمان، حتى تحل شفاعته لعمه الذي نصره، كان أبو طالب وبالرغم من صعوبة الموقف الذي كان يعاني منه ــ فيما يتصل بإيمانه بالرسالة الخاتمة، نعم ــ كان الناصر يخاطب بني عبدالمطلب قائلاً : " إنكم لن تزالوا بخير ما سمعتم قول محمد واتبعتم أمره، فاتبعوه وصدقوه ترشدوا"(٧٢)، وهذا القول الذي تفوه به أبو طالب يتفق مع خاتمة قصيدته البديعة هذه حيث يقول:

سيعلم أهل الضغن أي وأيهم يفوز ويعلو في ليال قلائل
وأيهمو مني ومنهم بسيفه يلاقي إذا ما حان وقت التنازل
فأصبح فينا أحمد في أرومةٍ تقصر عنها سورة المتطاول
كأني به فوق الجياد يقودها إلى معشر زاغوا إلى كل باطل
وجدت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالطلى والكلاكل
ولا شك أن الله رافع أمره ومعليهِ في الدنيا ويوم التجادل(٧٣)

ر ــ شعر علي بن أبي طالب في نصرته بعد وفاة السيدة خديجة وعمه أبي طالب

تركت وفاة السيدة خديجة ــ زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ــ، ثم وفاة عمه أبي طالب، آثارًا نفسية غائرة في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقول أهل السير: إنه لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذى ما لم تكن تنل منه في حياة عمه أبي طالب(٧٤). فقام ابن عمه

علي بن أبي طالب يدافع عنه كما كان يدافع والده عنه من قبل؛ فهو في قصيدة رويت له جمع فيها بين رثاء والده أبي طالب، وبين إظهار النصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيذكر فرح قريش بموت أبي طالب، لأنه كان يقوم سدًا بينهم وبين ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه معبرًا بأسى وحزن لذلك الفقد:

فأمست قريشُ يفرحون لفقده   ولست أرى حيًا لشيء مخلدا

ثم يلتفت إلى إمعان قريش في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، محذرًا إياهم من عاقبة هذا التحدي، وخصوصًا تهديدهم بقتل صاحب الدعوة، وأن عشيرته سوف تقف دون سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو الموقف الذي يذكر بأبي طالب ونصرته للنبي صلى الله عليه وسلم:

أرادوا أمورًا زينتها حلومهم   ستوردهم يومًا من الغي موردا
يرجون تكذيب النبي وقتله   وأن يفتروا بهتًا عليه وجُحَّدا
كذبتم - وبيت الله - حتى نذيقكم   صدور العوالي والصفيح المهنَّدا
فإما تبيدونا وإما نبيدكم   وإما تروا سلم العشيرة أرشدا
وإلا فإن الحي دون محمد   بنو هاشم خير البرية مجندا
وإن له منكم من الله ناصرًا   ولست أرى حيًا لشيء مخلدا
نبيٌّ أتانا بالوحي من كل حطة   فسمّاه ربي في الكتاب محمدًا
أغر كضوء الشمس صورة وجهه   جلا الغيم عنه ضوؤه فتعددا
أمين على ما استودع الله قلبه   وإن قال قولاً كان فيه مسددا(٧٥)

ز ــ بداية الدعوة خارج مكة واستجابة الأنصار لها فيما عرف ببيعة العقبة

طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، النصرة من ثقيف فكان من أمر إغراء السفهاء به ما جعله يأوي إلى ظل كرمة عنب، ويتوجه إلى ربه

بالشكوى(٧٦). ورجع الرسول إلى مكة، وأخذ يعرض الإسلام على القبائل ـ في مواسم الحج ـ وكان ممن قدم رجل من بني عمرو بن عوف من المدينة، اسمه سويد بن صامت، وتصدى له رسول الله لما عرف عنه من جلد وشعر وشرف ونسب، فدعاه إلى الإسلام. ولما تلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن كانت إجابته: إنه لقول حسن. ثم انصرف عنه، وقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج(٧٧). وكانت قبائل الأوس والخزرج في حروبهم الدائمة قبل البعثة يبحثون عن الاستعانة من خارج يثرب فقدم جماعة من بني عبدالأشهل، وفيهم رجل يدعى إياس بن معاذ يلتمسون نصرة قريش لهم على قومهم من الخزرج. فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، عرض عليهم الإسلام عند العقبة بين منى ومكة، في بساطة ويسر وهو أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً(٧٨)، وكان القوم في يثرب ـ آنذاك ـ يجاورون اليهود. فكان إذا وقع بينهم شيء قال اليهود لهم: إن نبيا يبعث قد أطل زمانه ونتبعه، فنقتلكم معه قتلة عاد وإرم، فشرح الله صدورهم لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم، مؤملين أن يجمع الله شملهم به، فلما رجع هذا النفر من الخزرج إلى المدينة، ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوهم إلى الإسلام. فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم(٧٩)، حتى إذا كان العام المقبل جاء إلى موسم الحج اثنا عشر رجلاً من الأنصار، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبايعوه. وكانوا من فروع شتى، كبني النجار، وبني عوف، وبني زريق؛ فأرسل معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبدمناف ليقوم بتعليمهم الإسلام، وتفقيههم في الدين، فتوحدوا خلف إمامة مصعب لما كان بينهم من الكراهية التي قضى الإسلام فيما بعد عليها قضاءً تامًا، ثم رجع مصعب إلى مكة في الموسم التالي ومعه جماعة من الأنصار المسلمين وغيرهم ممن لم يسلموا بَعْدُ. وفي بيعة العقبة الثانية، هذه بايع الأنصار في الشعب بمكة بحضور عم النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبدالمطلب

ولم يكن قد أسلم بعد، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فكان جواب الأنصار على لسان البراء بن معرور": والذي بعثك بالحق نبيًا لنمنعنك مما نمنع منه أُزرنا، فبايعنا يا رسول الله. فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر(٨٠).

وكانت بيعة العقبة حدًا فاصلاً بين الشعر الذي كان يهجو به الأوس والخزرج بعضهم. مثل ذلك الذي قيل عن عصبية في أيام معروفة بعينها مثل: يوم القضاء، ويوم البقيع، ويوم الفجار، ويوم بعاث، وذلك الشعر الذي أنشد بعد بيعة العقبة وخصوصًا لجهة ما يحمله من معان إسلامية، كما يدل ذلك القصيد على تعمق الإيمان في قلوب الأنصار، مقارنين فيه بين الحالة التي كانوا عليها من ضلال وتخبط، ثم ما كان من أمر الهدى الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم سببًا فيه. وهذا الشاعر عبدالله بن رواحة(٨١) يصور كثيرًا من المعاني في هذه المقطوعة الشعرية:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروفٌ من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى، فقلوبنا ... به موقنات، أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
وأعلم علما ليس بالظن أنني ... إلى الله محشور هناك وراجع(٨٢)

ودخل النقباء- الاثنا عشر- الذين تم اختيارهم في بيعة العقبة الثانية وهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، حيث اعتبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ممثلين لقومهم في المدينة، عندما خاطبهم قائلاً: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي ـ يعني المسلمين. فكانت إجابتهم بـ" نعم" وقد حفظ لنا الشعر هذا الحدث المهم.

فهذا الشاعر المدني كعب بن مالك[٨٣]، يذكر هؤلاء النقباء، مؤكدًا على العهد الذي أخذه الأنصار على أنفسهم بحماية ومنعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيها يخاطب أبا سفيان وبعض زعماء قريش بأن الأنصار وجدوا ضالتهم في النور الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم سوف يوفون بالوعد الذي قطعوه على أنفسهم بحماية النبي صلى الله عليه وسلم، والدفاع عنه، والقصيدة تُعَدُّ من بدايات الشعر الذي أضحى يتخذ منحىً جديدًا. متوائمًا مع المرحلة الجديدة في حياة الأنصار، يقول كعب:

وأبلِغْ أبيًا أنه قال رأيه وحان غداة الشِّعبِ والحين واقع
أبى الله ما منتك نفسك إنه بمرصاد أمر الناس راء وسامع
وأبلغ أبا سفيان أن قد بدا لنا بأحمد نور من هدى الله ساطع
فلا ترغبن في حشد أمر تريده وألب وجمِّعْ كل ما أنت جامع
ودونك فاعلَمْ أنَّ نقض عهودنا أباه عليك الرهط حين تتابعوا

ويختم كعب قصيدته بوصف هؤلاء النقباء الذين بهم دخلت المدينة ـ البلد ـ مرحلة جديدة من تاريخها، يصفهم بالنجوم الذين بهم تنزاح الظلمات، ويتبدد ليلها البهيم، فيقول:

أولاك نجوم لا يَغُبُّك منهم عليك بنحس في دجى الليل طالع[٨٤]

أحدثت بيعة العقبة ضجة في المجتمعين المكي والمدني، لأن مثل هذا الحدث التاريخي يمثل انعطافة جديدة في تاريخ الدعوة، التي حوربت لأسباب عديدة، منها ما هو ديني ومنها ما هو اقتصادي ودنيوي. ففي مكة مناوئون لها، وفي المدينة أهل كتاب هم اليهود يرصدون ما يحدث. فهم أيضًا بينهم وبين الأوس والخزرج حزازاتٌ وضغائن، فهم لم يكفوا عن تأجيج الصراع بين الأوس والخزرج في الحقبة الجاهلية، حتى إذا استقرت الدعوة فيما بعد في

المدينة، قاموا بدور تحريض كفار قريش على المؤمنين، ووصل بهم الأمر إلى الوقوف بجانب الكفار في وقعة الأحزاب المعروفة.

ح ـ الشاعر أبو القيس بن الأسلت الأوسي ورائعته الشعرية في تحذير القرشيين

في وسط هذا الضجيج ارتفع صوت أحد شعراء الحكمة، وهو الشاعر أبو القيس بن الأسلت الأوسي(٨٥)، وقصيدته التي وصفها بأنها رسالة موجهة إلى بني لؤي ابن غالب – أي إلى قريش– تدور أبياتها على الحرب ومآسيها، فيقول في مطلعها مخاطبًا ومحذرًا:

يا راكبًا إما عرضت فبلغن ... مغلغلة عني لؤي بن غالب
رسول امرئٍ قد راعه بينكم ... على النأي محزونٍ بذلك ناصبِ

ثم يدخل في موضوع رسالته الشعرية مباشرة قائلاً:

أعيذكم بالله من شر صنعكم ... وشر تباغيكم ودس العقارب
فذكرهم بالله أول وهلة ... وإحلال أحرام الظباء الشوازب
وقل لهم والله يحكم حكمه ... ذروا الحرب تذهب عنكم في المراحب
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... هي الغول للأقصين أو للأقارب
تقطع أرحامًا، وتهلك أمة ... وتبري السديف من سنام وغارب
وتستبدلوا بالأنخمية بعدها ... شليلاً وأصداء ثياب المحارب
وبالمسك والكافور غبرًا سوابغًا ... كأن قتريها عيون الجنادب
فإياكم والحرب لا تعلقنكم ... وحوضًا وخيم الماء مر المشارب
تَزَيَّن للأقوام ثم يرونها ... بعاقبة إذا بينت أم صاحب
تحرق لا تشوي ضعيفًا وتنتحي ... ذوي العز منكم بالحتوف الصوائب

إن قيسًا في هذه الأبيات يحذر قريشًا في أسلوب شعري محكم من الوقوع في شراك الحرب، مذكرًا إياهم بأنهم أهل حرمه، وأن في تجاربهم ما يدفعهم

للابتعاد عن الحرب وشرورها، التي سوف تقطع أرحامهم، آخذًا في الاعتبار أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قرشي المنبت والأصل؛ لذا فإن عداوته سوف تجلب كل الشرور، وتحيل حياتهم الرغدة إلى حياة قلقة ومضطربة، وأن شررها سوف يصل إلى القوي منهم قبل الضعيف. وكأن حديثه الشعري موجه إلى سراة القوم فيهم، وتحذيرهم من أن حربًا دينية كهذه سوف تسلب منهم ما يتمتعون به من سيادة وشرف وسؤدد، وفي قول ابن الأسلت. (متى تبعثوها تبعثوها ذميمة) ما يذكر بما ورد في معلقة الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سلمى التي أشاد فيها برجال السلم – هرم بن سنان والحارث بن عوف[٨٦] – فكان تصوير زهير الذي استوحاه ابن الأسلت، من القول الصادق الذي يرسم من خلاله زهير صورة بشعة ومخيفة عن الحرب حيث يقول:

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا أضريتموها فتضرم

وإذا كان زهير قد استمد حكمته من تجربة الحياة ومعاناتها القاسية[٨٧]، فإن ابن الأسلت لا يبعد عن زهير في تجربته العميقة بالحرب وآثارها المدمرة، لذا نجده يذكّر بحرب داحس والغبراء، ويذكر بالحرب التي خاضها، وكان قائد قومه الأوس فيها، وهي حرب يوم حاطب، وأن مثل تلك الحروب التي خاضتها القبائل العربية أصابت سراة القوم، المعروف عنهم الاحتفاء بالضيف، ومساعدة الضعيف ونجدته. يقول شاعرنا الحكيم ابن الأسلت:

ألم تعلموا ما كان في حرب داحس فتعتبروا، أو كان في حرب حاطب
وكم ذا أصابت من شريف مسوّدٍ طويل العماد ضيفه غير خائب
عظيم رماد النار يحمد أمره وذي شيمة محض كريم المضارب
وماء هريق في الضلال كأنما أذاعت به ريح الصبا والجنائب

وابن الأسلت في نصحه لقريش من مغبة الحرب ضد الرسول صلى الله عليه وسلم، يؤكد على تجربته الذاتية، حيث تروي كتب التاريخ أن شاعرنا الذي

كان رئيس الأوس في حرب يوم حاطب في يثرب، ودعته رئاسته لقبيلته لترك راحته، وهجر لذاته وهجر أهله. ونذر ألا يشرب خمرًا، ولا يلمس ماء أو طيبًا، حتى يحقق لقومه الأوس النصر، وجاء ذات يوم إلى امرأته فأنكرته، وكادت تقفل الباب في وجهه ولم تعرفه إلا بصوته(٨٨)، لذا نراه يخاطب قريشًا في ثقة قائلاً:

يخبِّرْكم عنها امرؤ حق عالم   بأيامها والعلم عِلْمُ التجارب

ويدعو ابن الأسلت قريشًا لإقامة الدين الحنيف، وأنهم إذا فعلوا ذلك فإن قبائل العرب سوف تهتدي بما يصنعون، وذلك لمنزلة قريش الرفيعة بين القبائل:

أقيموا لنا دينًا حنيفًا فأنتم   لنا غاية، قد يهتدى بالذوائب
وأنتم لهذا الناس نور وعصمة   تؤمون والأحلام غير عوازب
وأنتم إذا ما حصل الناس جوهر   لكم سرة البطحاء شم الأرانب
تصونون أنساب كريمة عتيقة   مهذبة الأنساب غير أشائب(٨٩)
ترى طالب الحاجات نحو بيوتكم   عصائب هلكي تهتدي بعصائب
لقد علم الأقوام أن سراتكم   على كل حال خير أهل الجباجب
وأفضله رأيًا وأعلاه سنة   وأقوله للحق وسط المواكب

ونلحظ في قول الشاعر (أقيموا لنا دينًا حنيفًا) المنحى الفطري لدى ابن الأسلت الذي يذكرنا بشبيهه عند عبدالمطلب، وأبي طالب، وورقة بن نوفل، وهو الإيمان بالله مما يجعلنا نقر بأن فكرة الوحدانية كانت موجودة في المجتمع الجاهلي، على الرغم مما اعترى طقوس الناس وعباداتهم في جاهليتهم من شرك وضلال.

في الأبيات السابقة ما يدل على أن العرب كانت تعتد بقبيلة قريش وسلوكياتهم، ولهذا لا ينفك الشاعر المدني مذكرًا بأن قريشًا تؤم الناس بما رزقها الله من عقول غير طائشة، وأنهم في أنسابهم الكريمة ما يدعوهم للشموخ والفخر، وهذا ما قصده الشاعر بقوله (شم الأرانب) أي شامخون شم الأنوف.

ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بُعث من أحسن القبائل نسبًا وأكرمهم أصلاً، حيث ورد في الحديث الذي أثبته القاضي عياض في كتابه المعروف (الشفا بتعريف حقوق المصطفى)، ويرويه ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن الله اختار العرب فاختار منهم قريشًا، ثم اختار قريشًا فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم، فاختارني منهم فلم أزل خيارًا من خيار " بل إن الشاعر المدني يذهب إلى أبعد من ذلك في تذكير قريش بمنزلتها عندما يصف أنسابهم بالنقاء، وذلك في قوله (مهذبة الأنساب غير أشائب) ومعروف أن الأشابة من الناس هم الأخلاط. وإذا أخذنا الأمر في سياقه الاجتماعي آنذاك، فإننا نجد حرص العرب على حفظ أنسابها، وصونها من كل ما يدنسها، ويضيف ابن الأسلت أن أصحاب الحاجات يؤمون بيوت القرشيين عندما تنزل بهم ضائقة ويحل بهم كرب، وأنهم سراة الناس، أي من أكثرهم مروءة وسخاء، ويقر لهم بالرأي السديد والجرأة في قول الحق في أوساط القبائل التي كانت تعد قريشًا من أكبرها وأهمها، وخصوصًا لوجود البيت الذي كانت تعظمه العرب في جاهليتها أشد تعظيم، وتقدسه أكبر تقديس. لذا فشاعرنا يطلب في خاتمة قصيدته من قريش أن يقوموا للصلاة في البيت، والتمسح بأركانه، ومذكرًا في الوقت نفسه بما دفعه الله عنهم من كيد أصحاب الفيل، وهذا النصر يتطلب من قريش شكرًا وحمدًا وعرفانًا لله، يقول ابن الأسلت في ذلك:

فقوموا، فصلوا لربكم، وتمسحوا　　بأركان هذا البيت بين الأخاشب

فعندكم منه بلاء مُصدَّق　　غداة أبي يكسوم هادي الكتائب

كتيبته بالسهل تمشي ورجلُهُ　　على القاذفات في رؤوس المناقب

فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم　　جنود المليك بين ساف وحاصب

ويأتي البيت الأخير الذي يدل على أن تذكير قريش بمنزلتها الدينية، ومدحه لأنسابها، وإشادته بكرمها ورجاحة عقلها، عندما يطلب الآخرون منها المشورة والنصح، يأتي هذا البيت الذي يربط فيه شاعرنا بين مصير قريش الاقتصادي

والاجتماعي، وبين مصير ما حولها من البيئات العربية. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن الشاعر ينتمي إلى بيئة يثرب، التي كان حبل الأمن فيها مضطربًا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك لتعرضها لغارات بعض أهل البادية عليها لخصوبة أرضها[٩٠]، ندرك مدى حرص الشاعر على استقرار بيئة مكة، فاستقرارها وأمنها ضروريان لما حولها من البيئات الأخرى. ويختم الشاعر المجرب الذي يحلو له أن يصف نفسه بالصدق وعدم الكذب، يختم مطولته قائلاً:

فإن تهلكوا نهلك، وتهلك مواسم يعاش بها، قول امريء غير كاذب[٩١]

ط ـ الهجرة إلى المدينة ودور الشاعر المخضرم حسان بن ثابت في المشهد الشعري

بعد بيعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم، على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليه من المسلمين، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، وأقام هو بمكة حتى يأذن الله له بالهجرة، فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمد إلى غار ثور فدخلاه، واختفيا فيه عن عيون الأعداء لمدة ثلاثة أيام[٩٢]، وكان الأنصار يخرجون كل صباح إلى الحرة ينظرونه أول النهار، فإذا اشتد حر الشمس رجعوا إلى منازلهم فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول في العام الثالث عشر من النبوة، خرجوا على عادتهم، وعند عودتهم سمعوا صوت رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرخ بأعلى صوته: " يا بني قيلة هذا صاحبكم قد جاء ". فبادر الأنصار إلى لقائه ونزل في قباء في بني عمرو بن عوف، وأسس مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس بعد النبوة[٩٣].

وكانت فرحة الأنصار بقدوم النبي صلى الله عليه وسلم قد دفعت نساء وصبيان الأنصار للفرحة به قائلين:

طلـــع البــدر علينـــا مــــن ثنيـــات الـــوداع
وجــب الــشكر علينـــا مــــا دعـــــا لله داعٍ
أيهــا الــمبعوث فينـــا جئت بـــالأمــر المطـــــاع[٩٤]

فالشعر كان حاضرًا في هذا الحدث الهام، وهو هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وما كان من أمر مروره بخيمة أم مبعد الخزاعيـــة، ودعـــاء الرسول صلى الله عليه وسلم لشاتها الضعيفة، والتي شرب الجميع بعد دعائه من حليبها، ثم انصرافه عن الخيمة، وحضر أبو معبدفلما رأى اللبن تعجب، فذكرت له مرور الرسول صلى الله عليه وسلم بالخيمة ودعاءه لها، فقـــال " هـــذا والله صاحب قريش الذي تطلب". ولو صادفته لالتمست أن أصـــحبه، ولأجهـــدن إن وجدت لذلك سبيلاً"[٩٥].

وعن حادثة الهجرة وما صاحبها من أحداث نجد الشاعر المدني حسان بن ثابت يفتتح قصيدته، مؤنبًا كفار قريش على تفريطهم في رسول الله صـــلى الله عليه وسلم حيث تداعوا عليه، حتى اضطروه للهجرة. فلما بلغهم نبـــأ هجرتـــه، ضلت عقولهم وأضحوا يلاحقونه في كل مكان. وفي المقابل يرسم حسان مشهد استقبال الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم، فهم يرون فيه هاديًا ومنقـــذًا مـــن الضلال، وهو يحاول من خلال هذه المقارنة أن يوضح الفرق بين موقف كفـــار قريش الرافض للإسلام، وموقف الأنصار المعتنق، والمصدق لكل ما جاء بـــه الرسول صلى الله عليه وسلم من آيات ومعجزات يخص الله به أنبياءه ورســـله. وهو لا ينسى أن يخص رفيق الرسول صلى الله عليه وسلم بإشادة صادقة تنبيء عن التلاحم، الذي بدت ملامحه تظهر في المجتمـــع الجديـــد بـــين المهـــاجرين والأنصار. ويشيد أيضًا بأم معبد، تلك المرأة التي فتحت خباءهـــا لرســـول الله صلى الله عليه وسلم، فحل فيه ضيفًا، فنالتها هي وأغنامها الضامرة من بركتـــه

ما نالت. وكان نبأ مرور الرسول صلى الله عليه وسلم قد وصل إلى كفار قريش، فأخذوا يبحثون عنه من جديد، لإيقاع الأذى به، فجاءت إجابة حسان شعرًا [٩٦] حين قال:

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم وقد سر من يسري إليهم ويفتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم وأرشدهم، من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا عمى، وهداة يهتدون بمهتد
لقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقه في اليوم أو في ضحى الغد
ليَهْنِ أبا بكر سعادة جده بصحبته، من يسعد الله يسعد
ويهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمسلمين بمرصد[٩٧]

لقد شاء الله أن يجمع لحسان بن ثابت بين مزية التقدم على أقرانه من شعراء يثرب في الجاهلية، وهو ما اعترف له به ابن سلام في (طبقاته) عند حديثه عن شعراء القرى العربية ــ بقوله: " وأشعرهم حسان بن ثابت، وهو كثير الشعر جيده[٩٨]". ومزية انتشار شعره في الإسلام، فهو أول الشعراء المسلمين وأبعدهم أثرًا وأعظمهم مكانة[٩٩]. ولقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم دور الكلمة الصادقة والمؤثرة في المعركة الدائرة بين الإيمان والكفر.

وتسخير أقوى سلاح عرفته العرب في تلك الحقبة، ألا وهو الشعر في الذود عن الإسلام وأهله. فكانت مقولته التي رواها المحدثون وأصحاب السير: "اهجهم وروح القدس معك (جبريل) وجبريل معك" وذلك عندما أقدم شاعر قريش أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب على هجاء النبي صلى الله عليه وسلم، فاختاره الرسول صلى الله عليه وسلم[١٠٠] للرد على هجاء ابن الحارث[١٠١]، فقال حسان منافحًا عن الرسول وعشيرته من بني هاشم.

لقد علـم الأقـوام أن ابـن هاشـم هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد
ومالـك فـيهم محتـد يعرفونـه فدونك فالصق مثل ما لـصق القـرد
وأبلغ أبـا سـفيان عنـي رسـالة فمالك مـن إصـدار عـزم ولا ورد
وإن سناء المجد مـن آل هاشـم بنـو بنت مخزوم ووالـدك العبد(١٠٢)

وإذا كان حسان، بسبب ذيوع صيته في الجاهلية، قد لقي من العناية أكثـر مما لقيه أي شاعر في العهد الإسلامي الأول (١٠٣). فلأنه لم يخيب آمال رسـول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم، فنجد صوته الشعري المؤثر يرتفع في كل مناسبة. ومما ينسب إليه قوله يوم فتح مكة، يحذر كفـار قـريش ويشيد بالأنصار، ويرد على سفيان بن الحارث:

عـدمنا خيلنـا إن لـم تروهـا تثيـر النقـع موعـدها كـداء
يبـارين الأسـنة مـصغيات علـى أكتافهـا الأسـل الظمـاء
تظـل جيادنـا متمطـرات تلطمهـن بـالخمر النـساء
فإمـا تعرضـوا عنـا اعتمرنـا وكـان الفـتح وانكـشف الغطـاء
وإلا فاصـبروا لجـلاد يـوم يعـين الله فيـه مـن يـشاء
وقـال الله قـد يسـرت جنـدًا هـم الأنصـار عرضتهـا اللقـاء

ومن أبيات قصيدته تلك ما يرد به على أبي سفيان بن الحارث، مجسدًا في رده عظيم حبه الذي تعمق في نفوس المؤمنين منذ ظهوره نبيًا، وفـي حياتـه، وبعد أن لحق بالرفيق الأعلى، بمدحه يقول حسان في همزيته المشهورة:

ألا أبلـغ أبـا سـفيان عنـي فأنـت مجـوف نخـب هـواء
هجـوت محمـدًا فأجبـت عنـه وعنـد الله فـي ذاك الجـزاء
أتهجـوه ولـست لـه بكـفء فـشركما لخيركمـا الفـداء
فمـن يهجـو رسـول الله مـنكم ويمدحـه وينـصره سـواء
فـإن أبـي ووالـده وعرضـي لعـرض محمد منكم وقـاء (١٠٤)

ولقد فتح حسان بمدحه للمصطفى صلى الله عليه وسلم الباب لمن أتوا بعده من الشعراء الذين وقفوا شعرهم على الترنم بحبه، والتشوق للديار التي تشرفت بموطئ أقدامه، وضم ثراها جسده الطاهر.

ولم يتناقل الناس من شعر كما تناقلوا قول حسان، في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم:

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءًا من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء[١٠٤]

وإذا كان حسان الذي وصفه بعض نقاد الشعر ـ مثل صاحب الأغاني ـ بأنه أشعر أهل المدر[١٠٦]، وهو الذي شهد بشاعريته شاعر جاهلي مشهور مثل النابغة، وذلك عندما قدم إلى المدينة فتسابق شعراؤها ـ لمنزلته الشعرية الرفيعة ـ ينشدونه أشعارهم، فلما أنشده حسان قال له مقولته التي ذهبت مثلاً " أنت أشعر الناس"[١٠٧].

إذا كان شاعرنا حسان الذي عمّر طويلاً بين الجاهلية والإسلام[١٠٨]، قد لازم النبي صلى الله عليه وسلم وانعكست هذه الصحبة على أشعاره التي أضحت مليئة بالصور والتشبيهات النابعة من أعماق النفس المؤمنة، فإنه أحس إحساسًا صادقًا بفقد شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت تملأ على الناس حياتهم وتشملهم بكل ما تتطلع إليه النفوس من حب ورحمة، وعطف وشفقة؛ فذهب حسان يبكيه حتى ذهبت أشعاره في رثائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلاً على كل لسان، ومن ذلك قوله:

بطيبة رسم للرسول ومعهدٌ ... منير، وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تنمَحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثار وباقي معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى فالاى منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبرًا بها واراه في الترب ملحد

ومنها:

لقد غيبوا حلمًا وعلمًا ورحمة عشية علّوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكي السموات يومه ومن بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يومًا رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد(١٠٩)؟

نعم لقد مات محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، لكن تعاليمه التي أتى بها من وسطية، وعدل ومساواة، وتسامح ومحبة، ورحمة ظلت تتجدد ــ كما أنشد حسان ــ لا يأتيها البلى، فالخلود من بعد مماته لآيات الله وشرعه وسنته.

خاتمة

لقد حاول هذا البحث أن يلقي شيئًا من الضوء على بيئة مكة الشعرية في العصر الجاهلي، وأن لتلك البيئة أهمية اكتسبتها من الدور الذي أدته لغة قريش، والتي اختارها الشعراء من بين اللغات، أو اللهجات الأخرى لتكون لغة للشعر الذي يُنْشَدُ في أسواق العرب ومنتدياتها. ومن خلال هذه الإطلالة على البيئة المكية، وما جرى فيها من أحداث قبل البعثة النبوية وبعدها، وما قيل من شعر يتصل بهذه الأحداث ــ فإنه يتضح أن عددًا من الشَّخصيات المكِّية كعبدالمطلب. وإن كانت هذه المساهمة محدودة بالنسبة للبيئات الشعرية الأخرى، إلا أنها تكشف عن شاعرية، مَرَدُّها إلى السليقة التي عُرِفَ بها العرب في جاهليتهم في إبداع الشعر، وبعض فنون القول الأخرى، كالخطابة مثلاً. واستطعنا الوقوف من خلال قصائد الشعراء المكيِّين على الصراع الذي كان دائرًا في المجتمع المكي، بين أنصار الدعوة الجديدة، والتي كان محورها شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ــ والذي كان يحظى بحب واحترام بني قومه ــ وبين الرافضين لهذه الدعوة، ونجد في الإبداعات الشعرية تلك ما يمكن اعتباره حوَارًا بين الأطراف المتصارعة أو المتنافرة، وخصوصًا من جانب شعراء التحنُّفِ والحكّمةِ.

وبهذا يكون هذا الشعرُ ممثِّلاً لفترة التطلّع والترقُّب والانتظار، التي سبقت ظهور الإسلام، ولم يخفت صَوْت الشعر كما يذهب بعض النقاد بعد أن أصبح الإسلام قُوَّةً جديدةً في حياة المكيِّين وما جاورهم من بيئات الجزيرة العربية الأخرى كبيئة يثرب والتي عرفت بكثرة الشعر في العصر الجاهلي. واستطاع شعراء من أمثال حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة (وهم من شعراء الخَضْرَمة) استطاعوا أن يسخِّروا إمكانياتهم الشعرية للدفاع عن الدين الجديد، ونجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم يشجع هؤلاء الشعراء للتصدِّي للمناوئين للدعوة، وذلك يتَّسقُ مع ما عُرِف من إعجابه صلى الله عليه وسلم ببعض شعراء التحنث وخُطباء الحِكْمة كقسٍّ بن ساعدة بل يذهب صلى الله عليه وسلم إلى أبعد من ذلك عندما يخاطب حسان بن ثابت رضي الله عنه قائلاً: اُهجهم وروح القدس معك. إيماناً منه صلى الله عليه وسلم بدور الكلمة الشعرية في مجتمع عَرَفَ الشِّعْرَ وأصْغَى إليه منذ ما يقرب من قرن ونصف قبل ظهور الإسلام.

لقد كانت الأحداث التي شهدها مجتمع مكة وهي أحداث هامة مثل: واقعة الفيل، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم، وحديث ورقة بن نوفل، وصحيفة المقاطعة، وبيعة العقبة والهجرة.

لقد كان لهذه الأحداث دورها في إضفاء كثير من الحركة على المشهد الشعري ـــ آنذاك ـــ وهذا ما حاولنا الوقوف عنده وتحليل بعض ذلك الإنتاج الشِّعري في ضوء العوامل المصاحبة له، أو المتوازية معه من دينية وسياسية واجتماعية، تاركين الباب مفتوحًا أمام دراسات أخرى تقف على المعطيات الشعرية لحركة شعر التحنّف والحكمة، والذي يعتبر في جزء منه، متصلاً بحقبة الخضرمة التي تختلف الآراء النقدية في تحديدها، ولكنها تتفق على أهميتها، وخصوصًا بالنسبة لأولئك الشعراء الذين ساهموا بقسط كبير من الشِّعْرِ في الجاهلية والإسلام.

الهوامش

١) *في الشعر الجاهلي*، **طه حسين**، دار المعارف للطباعة والنشر سوسة، تونس، ص ١٩.

٢) ضمَّن د. س. مرجليوث آراءه في الانتحال في البحث الذي أطلق عليه أصـول الـشعر العربي. The Origins of Arabic Poetry.

أصول الشعر العربي، **د.س. مرجليوث**، ترجمة يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٣) *أصول الشعر العربي*، المقدمة، ص ٥.

٤) *دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي*، عبدالرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ص١٠، ١٩٧٩م، ص ص: ١٧ ــ ٤٠.

٥) *موسوعة المستشرقين*، **عبدالرحمن بدوي**، دار العلم للملايين، ط١١، ١٩٨٤م، ص٣٧٩.

٦) *طبقات فحول الشعراء*، **محمد بن سلام الجمحي**، قرأه وشرحه محمود محمـد شـاكر، مطبعة المدني، ج١، ص٤.

٧) *المصدر السابق*، ص ٥.

٨) ملحمة يونانية تنسب إلى الشاعر هُومير، وتصفُ أبياتُها الحَرْبَ التي خاضـها أبطـال اليونان لإنقاذ هيلانة، التي اختطفها باريس من فريام.

The Oxford, Companion, to English literature, by, **Margaret, Drabble**, Oxford University Press 1985, P, 492.

٩) *العصر الجاهلي*، **شوقي ضيف**، دار المعارف، مصر، ط٤، ص١٣١.

١٠) *تاريخ الشعر العربي، حتى آخر القرن الثالث الهجري*، **نجيب محمد البهبيتي**، دار الثقافة ــ الدار البيضاء، ١٩٨١م، ص١٩٩.

١١) A Literary History of the Arabs, R.A.Nicholson., Press Syndicate of the University of Cambridge, Introduction.

١٢) *تاريخ الشعر العربي*، *المصدر السابق*، ص١٩٩.

١٣) *الفصحى لغة القرآن*، **أنور الجندي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص ص: ٢٣-٢٥.

١٤) *قصة الأدب*، *المصدر السابق*، ١٢٣.

١٥) *طبقات فحول الشعراء*، *المصدر السابق*، ص٢٤٤.

١٦) *ديوان أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم*، دار الكتـاب العربـي، بيـروت، ط٤، ١٤٢٣ ــ ٢٠٠٢م.

١٧) *طبقات فحول الشعراء*، *المصدر سابق*، ص ٩١، ٢٤٦.

١٨)*قصة الأدب*، ص١٢٣.

١٩)**نيكلسون**، الفصل الثالث، ص٧١.

٢٠)*الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه*، **يحيى الجبوري**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ١٢٨.

٢١)*قضية المعلقات، تاريخ آداب اللغة العربية*، **جرجي زيدان**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م، ص٩٥، وكذلك: *المعلقات السبع*، **بكري شيخ أمين**، دار الإنسان الجديد، بيروت، ص١١، وكذلك *تاريخ الأدب العربي*، **كارل بروكلمان**، ترجمة د. عبدالحليم النجار، دار المعارف، مصر، ط٤، ج١، ص٦١، *شرح القصائد العشر*، **للخطيب أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٢)*طبقات فحول الشعراء*، ج١، ص٢٥٩.

٢٣)*الشعر الجاهلي للجبوري، المصدر السابق*، ص٨٣.

٢٤)*الشعر المنحول*، **فضل بن عمار العماري**، مكتبة التوبة، الرياض، ط١١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، ص٨٣.

٢٥)*قصة الأدب*، ص٢٢٦.

٢٦)*قصة الأدب*، ص١٠٦.

٢٧)*تاريخ الأدب العربي*، **أحمد حسن الزيات**، ط٢٤، ص٢٠.

٢٨)*شاعرات العرب في الجاهلية*، **جورج غريب**، دار الثقافة، ط١، ١٩٨٤م، ص٢٨.

٢٩)*كيف أفهم النقد ؟*، **جبرائيل جبور**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ١٠٦.

٣٠)*تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام*، **شكري فيصل**، دار العلم للملايين، ط٦، ١٩٨٢م، ٣٤١/٣٤٢.

٣١)*العصر الإسلامي*، **شوقي ضيف**، دار المعارف، مصر، ط٧، ٣٥٠.

٣٢)*الشعر المنحول*، ص٨٣.

٣٣)*قصة الأدب*، ص٧٨.

٣٤) *Lectures on Arabic Historians*, **D.S.Margoliouth,** University of Calcutte, 1930, P, 63.

٣٥) *A Dictionary of Literary Terms*, Magdi Wahba Beirut - Lebanon: P40.

٣٦)*في الأدب واللغة*، **أحمد هيكل**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٣١.

٣٧)*المصدر السابق*، ص٣٢.

٣٨)*محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم*، **محمد الصادق عرجون**، دار القلم دمـــشق، ط٢، ١٤١٥ هــ ــ ١٩٩٥م، ص٩٢.

٣٩)*سيرة ابن إسحاق*، **محمد بن يسار بن إسحاق بن يسار**، تحقيق وتعليق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، ص٣٩.

٤٠)يذكر السُّهيلي أنه قد ذهب مع عبدالمطلب إلى أبرهة حين بعث إليــه رســوله حناطــة الحميري نفر من قومه، وهم يعمر من نفاثة بن عديٍّ بن الدُّئل بن بكر بن مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد بكر، وخويلد بن واثلة الهذلي، وهو يومئذ سيد بن نائلة هذيل، فعرضــوا على أبرهة ثلث أموال تهامة، على أن يرجع عنهم، ولا يهدم البيت فــأبى علــيهم، وأن أبرهة رد على عبدالمطلب الإبل التي أصابها له.

الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، للإمام المحدث عبدالرحمن السُّهيلي، بتعليق عمر عبدالسلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢١هــــ/ ٢٠٠٠م، ج١، ص١٤٩.

٤١)في ابن اسحاق، ص٣٩، ورد الشطر الأول من البيت الثاني هكذا (لا يغلبوا بصليبهم) أما السُّهيلي فأورد بيتًا ثالثًا من الرجز، قال إنه لم يكن في الأصل هو:

وانصر على آل الصليب   وعابديه اليوم آلك

٤٢)*محمد رسول الله، المصدر السابق*، ج١، ٩٥.

٤٣)*الرَّوضُ الأنف*، ج١، *مرجع سابق*، ص١٦٥، كما وردت في السيرة النبوية للإمام أبــي الفدا إسماعيل بن كثير ــ تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٦هــ/ ١٩٧٦م.

٤٤)*العصر الجاهلي، المصدر السابق*، ص٢٢٧.

٤٥)وردت *الأبيات في الروض الأنف*، ج١، ص ١٦٧، ولم ترد إشارة إليها مطلقًا سواء في *سيرة ابن اسحاق*، أو *تهذيب سيرة ابن هشام*.

٤٦)*محمد رسول الله، المصدر السابق*، ج١، ص١٠٢.

٤٧)يُحَدِّدُ ابن هشام المولد ص٣٦، بيوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عام الفيل، وفي *الروض الأنف*، ج٢، ٩٨، ذكر أن مولده كان في ربيع الأول من غيــر تحديد لليوم. ويتفق ابن سيد الناس مع ما ذهب إليه ابن هشام، وأردف ذلك بقوله: قيــل بعد عام الفيل بخمسين يومًا. *عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير*، **فتح الدين**

أبو الفتح محمد بن سيد الناس الشافعي، بتعليق الشيخ إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، وأضاف الصالحي عند الحديث عن مولده: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن يوم الاثنين فقال: " ذاك يوم ولدت فيه، أو قال: أنزل عليّ فيه.

سُبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، للإمام **محمد بن يوسف الصالحي الشامي**، دار المكتبة العلمية بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج١، ص٣٣٣. وينقل الدكتور عبدالحليم محمود – رحمه الله – وهو المتخصص في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عن المسيودينيه – الذي أسلم وتسمى بـ " ناصر الدين" أن ولادة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت صباح يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل عام الفيل (٢٩ أغسطس). سنة ٥٨٠م، محمد *رسول الله* " ترجمة عبدالحليم محمود و محمد عبدالحليم، " دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م، ص٨١، ولم أجد حدًا.

أما ابن حبيب فقد ذكر عند حديثه عن ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم ما نصه: قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ويقال لثمان ليال خلون من شهر ربيع الأول، *المُحبَّر*، **لأبي جعفر محمد بن حبيب ابن أمية بن عمر الأشمى البغدادي**، رواية أبي سعيد بن الحسن السكري. تصحيح وعناية الدكتورة: يلزة ليختن شتيتر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،".

أما ابن كثير فقد فصّل الحديث عن ولادته الشريفة فقال: ومما لا اختلاف فيه أنه ولد – صلى الله عليه وسلم – يوم الاثنين – معتمدًا على روايات لعبدالله بن عمر وابن عباس، بأنه ولد – صلاة الله عليه وسلامه يوم الاثنين وتوفي كذلك يوم الاثنين، وخطأ ابن كثير من قال بولادته. يوم الجمعة – مؤكدًا أن الجمهور على اتفاق، من أن يوم الاثنين هو يوم الولادة الشريفة، ولكنه جعل الباب مفتوحًا بالنسبة للتاريخ من شهر الربيع نفسه، فذكر – رحمه الله – بأنه قيل: لليلتين خلتا منه، وقيل لثمانٍ خلون منه، وقيل لعشر صلوات منه، وقيل لثنتي عشرة خلت منه.

السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير. تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ج، ص ص: ١٩٨- ١٩٩.

٤٨) في *الروض الأنف*، وردت القافية بكلمة (الشان) وهو تصحيف.

٤٩) **ابن كثير**، *المصدر السابق*، ج١، ص ٢٠٨.

٥٠)في *الروض الأنف* (البيان) وعند **ابن كثير** (اللسان)، وما دام أن الشعر الجاهلي قد روي شفاهة فمن الجائز حصول هذا الاختلاف في الرواية.

٥١) **ابن كثير**، *المصدر السابق*، ج١، ص ٢٠٨.

٥٢)في قضية شعر عبدالمطلب لحفر بئر زمزم، والحوادث المرتبطة بها من مثل نذره، لئن وُلِدَ له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرَّن أحدهم لله عند الكعبة، ثم فداء عبدالمطلب لابنه عبدالله، الذي وقع الاختيار عليه في عملية ضرب القداح، وهي عادة جاهلية. وكان عبدالله أحب ولد عبدالمطلب إليه. *ابن هشام، المصدر السابق*، ص ص: ٣٣ - ٣٥.

٥٣)*موسيقى الشعر*، **إبراهيم أنيس**، دار القلم، بيروت، ص١٤٢.

٥٤)يورد الماوردي قصيدة لعبدالمطلب بن هاشم، وذلك أنه بعد وفاة عمِّه واسمه (المطَّلب) ابن عبدمناف الذي أخذه من أمه وأخواله بني النجار في يثرب - في الحقبة الجاهلية - وقدم به إلى مكة - ونسب إلى عمه على أنه عبده وسمي باسم عَمِّه، فلما مات المطلب، وثب عليه عمه نوفل بن عبدمناف، في ساحة كانت له فاغتصبه إياها، فسأل عبدالمطلب رجالات قومه النصرة على عمه فقالوا لسنا داخلين بينك وبين عمك. فلما رأى عبدالمطلب ذلك كتب إلى أخواله بني النجار - شعرًا يقول فيه:

يا طول ليلى لأشجاني وأشغالي	هل من رسول إلى النجار أخوالي
ينبي عديًا وديناراً ومازنها	ومالكًا عصمة الجيران عن حالي
وكنت ما كنت حيًا ناعمًا جذلاً	أمشي الغضَّية سحابًا لأذيالي
حتى ارتحلت إلى قومي وأزعجني	عن ذاك مطلب عمي بترحالي
فغاب مطلب في قعر مظلمة	وقام نوفل كي يعدو على مالي
أئن رأى رجلاً غابت عمومته	وغاب أخواله عني بلا والي
أنحى عليه، ولم يحفظ له رحمًا	ما أمنع المرء بين العم والخال
فاستنفروا، وامنعُوا ضيم ابن اختكم	لا تخذلوه وما أنتم بُخذَّالي
ما مثلكم في بني قحطان قاطبة	حيٌّ لجار وأنعام وأفضال
أنتم ليان لمن لانت عريكته	سلمًا لكم، وسمام الأبلج العالي

عن الحادثة والقصيدة المرتبطة بها:
أعلام النبوية، **لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي**، دار الكتاب، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. ص ص: ١٦٠ - ١٦١.

٥٥)ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، وأم ورقة هي هند بنت أبي كبير بن عبد ابن قصي، ولاعقب له: *الروض الأنف*، ج٢، ص١٦٠.

٥٦)*سيرة ابن هشام*، ص ص: ٤٣-٤٤.

٥٧)*ورقة بن نوفل في بطنان الجنة*، **عويد بن عياد بن عايد الطرفي**، "مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٠٤.

٥٨)وردت القصيدة في سيرة *ابن هشام* ص ٤٥، *وسيرة ابن كثير*، ج١، ص ٢٦٨، وفي *الروض الأنف*، ج٢، ص ص: ١٦٣ - ١٦٥. وتجدر الإشارة أن الأبيات الستة الأخيرة لم ترد في سيرة ابن هشام، مع ورودها في بقية المصادر المذكورة.

٥٩)*ورقة بن نوفل*، *المصدر السابق*، ص١٠٧.

٦٠)*المصدر السابق*، ص٣٢.

٦١)*الروض الأنف*، ج٢، ص ١٦٥.

٦٢)في *ابن إسحاق*، ص٩٥، ورد البيت الرابع من قصيدة ورقة كما يلي:

فتاك الذي وجهت يا خير حرةٍ *** بغوري والنجدين حيث الصحاصح

٦٣)*الروض الأنف*، ج٢، ص ص: ١٦٧ - ١٦٨.

٦٤)*ابن إسحاق*، *المصدر السابق*، ص ١٢٦.

٦٥)*الروض الأنف*، ج٣، ص: ٩.

٦٦)*ديوان أبي طالب*، *المصدر السابق*، ص ص: ٨٢ - ٨٣، وفي سيرة ابن إسحاق لم ترد الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة، وفي *الروض الأنف* وسيرة *ابن كثير* لم يرد البيتان الأخيران من القصيدة.

٦٧)*المصدر السابق*، ص٧٦.

٦٨)*المصدر السابق* ص ٧٧.

كما وردت الأبيات السابقة من القصيدة اللامية في تهديد فرع بني لؤي، في سيرة *ابن اسحاق*، ص١٣٩.

٦٩)*سيرة ابن هشام*، *المصدر السابق*، ص ص:٨٠ - ٨١.

٧٠)*ديوان أبي طالب*، *المصدر السابق*، ص ص: ٦٣ - ٧٤.

٧١)*قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث*، **محمد زكي عشماوي**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٣١.

٧٢)*سيرة ابن إسحاق*، *المصدر السابق*، ص٢٢٠.

٧٣)*ديوان أبي طالب*، *المصدر السابق*، ص٧٤.

٧٤)*الروض الأنف*، ج٤، ص ٢٣.

٧٥)*سيرة ابن إسحاق*، ص ٢٢٤.

٧٦)هذه الشكوى من روائع القول النبوي، وبيانه المعجز، حيث يخاطب مولاه فيها قائلاً: اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمّني؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك"

"*سيرة ابن هشام*"، ص ص: ٩٧ - ٩٨.

و*الروض الأنف*، ج٤، ص ص: ٢٧ - ٢٩.

٧٧)ويروي ابن كثير عن البيهقي والحاكم خبر سويد، ذاكرًا في آخره أن رجالاًمن قومه يقولون إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل يوم بعاث وهو يوم مشهود تقاتلت فيه قبيلتا الأوس والخزرج.

٧٨)*الروض الأنف*، ج٤، ص٤١.

٧٩)*سيرة ابن هشام*، ص١٠٢.

٨٠)*المصدر السابق*، ص١٠٥.

٨١)عبدالله بن رواحة بن امرئ القيس من بني مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج، أسلم وشهد بيعة العقبة الثانية (٦٢٢م)، اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم كاتبًا وشاعرًا يرد على المشركين هجاءهم، ولقد استشهد في موقعة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة، *معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين*، **عفيف عبدالرحمن**، دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٢٩٠، وذكر ابن سلام في طبقاته، ج١، ص٢٢٣، ما نصه " وكان عبدالله بن رواحة عظيم القدر في قومه، سيدًا في الجاهلية، وكان في حروب قومه في الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم".

٨٢)*ديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي*، دراسة وجمع وتحقيق حسن محمد باجودة – دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٤٣.

٨٣)*الروض الأنف*، ج٤، ٧٦، كعب بن مالك بن أبي كعب من بني سلمة من الخزرج، ولد في يثرب نحو ٥٩٨م، شهد بيعة العقبة، ودخل في الإسلام وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره، وقد عدَّه ابن سلام من طبقة شعراء المدينة، وقد توفى بين سنة ٥٠هـ – ٥٥هـ.

معجم الشعراء الجاهليين والإسلاميين، المصدر السابق، ص٢٩٧٠.

٨٤)قصيدة كعب بن مالك في *الروض الأنف*، ج٤، ص٧٦ وفي سبل الهدى والرشاد، ج٣، ص٢٠٤، ويبدو أن كعبًا قد روى حديث المبايعة مفصلاً – كما ورد في كتب السيرة، حيث ذكر **الصالحي** في *سبل الهدى والرشاد*، ج٤، ص٢٠٦، أن كعبًا قال: "كان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، البراء بن معرور، ثم بايع بعد القوم".

٨٥)أبو قيس بن الأسلت – هو عامر بن جشم بن يزيد – شاعر جاهلي، **معجم** *الشعراء الجاهليين والإسلاميين*، ص٥٠٥، كما سلكه ابن سلام ضمن شعراء القرى العربية في طبقاته، ج١، ص ص: ٢٢٦ – ٢٢٧، ووصفه بأنه شاعر مجيد، وأكد رواية عدم إسلامه. كما أورد صاحب المفضليات قصيدته العينية التي أنشدها يوم حاطب في الجاهلية، المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلي الضبي، تحقيق وشرح، أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، بيروت، ط٦١، ص ص: ٢٨٤ – ٢٨٦، كما أوردها أبو الخطاب القرشي في جمهرته وقال: إن الأوس أسندت أمرها في حرب حاطب لابن الأسلت، جمهرة *أشعار العرب*، **لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي**، بشرح وتقديم على فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ص: ٣٠٥ – ٣٠٧.

٨٦)*الشعر الجاهلي، المصدر السابق*، ص ص: ٣٠٧ – ٣٠٨.

٨٧)*الشعر الجاهلي – مراحله واتجاهاته الفنية*، **سيد حنفي حسنين**، "دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٤٧.

٨٨)*شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج*، **محمد العيد الخطراوي**، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، ص ص: ١٥٧ – ١٥٨.

٨٩)نجد الشاعر ابن الأسلت في هذا البيت متأثرًا بقول النابغة الذبياني يصف جيش عمرو بن الحارث الغساني:

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت*** قبائل من غسان غير أشائب

ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبدالستار، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط٢١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص٣٠.

٩٠)*يثرب قبل الإسلام*، **محمد السيد الوكيل**، دار المجتمع ـ جدة، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ص: ١٢٥- ١٢٦.

٩١)بلغت أبيات قصيدة الشاعر أبي قيس بن الأسلت خمسة وثلاثين بيتًا، ووردت في سيرة ابن كثير، ج٢، ص ص: ١٨٥- ١٨٧. كما أورد القصيدة جامع ومحقق ديوان ابن الأسلت، " ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت، الأوس الجاهلي، دراسة وجمع وتحقيق حسن محمد باجودة" دار التراث، القاهرة، ص ص: ٦٤-٧٠.

٩٢)*سيرة ابن هشام*، ص ص: ١٠٨-١١٤.

٩٣)*محمد رسول الله ، المصدر السابق*، ج٢، ص ص: ٥٦٠- ٥٦١.

٩٤)*في سيرة ابن كثير* لم يرد المقطع الأخير من الأبيات، ج٢، ص ص: ٢٦٩-٢٧٠، وأثبت الأبيات الشيخ المحقق محمد صادق عرجون، مثبتًا روايتها عن القسطلاني في المواهب اللدنية، إلا أنه علق بعد إيرادها قائلاً:

"هذا الشعر أو النشيد لم نعثر على اسم قائله، ولا وجدناه منسوبًا لشاعر صغير أو كبير، بيد أنه شعر مشهور، مذاع على الألسنة، وفي بطون الكتب والدواوين"، محمد رسول الله، ج٢، ٦٠٢.

٩٥)*سيرة ابن كثير*، ج٢، ص٢٦١.

٩٦)يذكر أصحاب السير أن سبب إنشاء حسان لقصيدته هو ما روي عن أسماء بنت أبي بكر حين خفي عليها، وعلى من معها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يدروا أين توجه، حتى أتى رجل من الجن يسمعون صوته ولا يرونه، فمر على مكة والناس يتبعونه، وهو ينشد أبياتًا من الشعر. *الروض الأنف*، ج٤، ص١٤٤، *وسيرة ابن كثير*، ج٢،ص ٢٦٢، *وسيرة ابن هشام*، ص١٦٦.

٩٧)*ديوان حسان ثابت*، تحقيق الدكتور وليد عرفات، " مطبوعات مؤسسة جب التذكارية"، ج١، ص٤٦٤.

٩٨)*طبقات فحول الشعراء*، ج١، ص٢١٥.

٩٩)*شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه*، **يحيى الجبوري**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ص٦٣.

١٠٠) تروي السيدة عائشة رضي الله عنها - قائلة: " استأذن حسان بن ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجاء المشركين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فكيف بنسبتي فقال: لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين".

فضل الله الصمد في الأدب المفرد، **لأبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري**، "المكتبة السلفية"، القاهرة، ط٣، ١٤٠٧هـ، ص ص:٣١٣ - ٣١٤.

١٠١) تروي كتب السيرة أن أبا سفيان بن الحارث أسلم قبل دخول الرسول صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح سنة ١٨هـ، وقال قصيدته التي يعتذر فيها عما بدر منه في حق الرسول صلى الله عليه وسلم.

لعمرك إني يوم أحمل رايةً لتغلب خيل اللات خيل محمد

الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدي وأهتدي

سيرة ابن هشام، ص٢٥٠.

١٠٢) *ديوان حسان بن ثابت*، *المصدر السابق*، ج١، ص ٣٩٨.

١٠٣) شعر *المخضرمين*، *المصدر السابق*، ٦٣.

١٠٤) *ديوان حسان بن ثابت*، ج١، ص ص: ١٧- ١٨، وأوردها ابن هشام في سيرته، ص ص: ٢٦٠- ٢٦١، وورد الشطر الثاني من البيت الذي يشير فيه إلى سفيان بن الحارث مختلفاً عن رواية الديوان.

ألا أبلغ أبي سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء

١٠٥) *المصدر السابق*، ص ٤٤١.

١٠٦) *نظرات في الشعر الإسلامي والأموي*، **ظاهر القاسمي** - دار النفائس، ط١، ١٣٦٨هـ - ١٩٧٧م.

١٠٧) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، **ناصر الدين الأسد**، دار المعارف، ط٥، ١٩٧٨م، ص٢٦٢.

١٠٨) يذكر ابن قتيبة، أن حسان بن ثابت الأنصاري عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين سنة، ومات في خلافة معاوية.

الشعر والشعراء **لابن قتيبة**، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط٣، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج١، ص ٣٠٥.

١٠٩) ديوان حسان بن ثابت، ج١، ص ص: ٤٥٥ - ٤٥٧.

وللناقد الدكتور عبدالقادر القط رأي في بعض ما رُوِيَ عن حسان بن ثابت، وخصوصًا تلك القصائد المتصلة بفن المديح النبوي، فهو يرى أن بعضها لا يرتقي في مستواه إلى ما عرف عنه من شعر جيد، لذلك لا يستبعد أن تكون من نظم بعض الشعراء في العصور المتأخرة، ولربما ينسجم هذا الرأي مع ما ذكر ابن سلام في طبقاته عند حديثه عن شاعرية حسان "وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد". *الشعر الإسلامي والأموي*، **عبدالقادر القط**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م، ص ص: ٣٩ - ٤١.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية

ابن اسحاق، محمد (د. ت.) *سيرة ابن اسحاق*، كتاب المبتدأ والبعث والمغازي، تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، (د. ن.).

الأسد، ناصر الدين (١٩٧٨م) *مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية*، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ص١.

الأصبهاني، أبو نعيم (١٤٠٦هـ) *دلائل النبوة*، تحقيق: محمد رواس قلعة جي وعبدالبر عباس، دار النفائس، بيروت، ط٢

الأصمعي، عبدالملك بن قريب (د. ت) *الأصمعيات*، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، عالم المعرفة، السعودية، ط٥.

الأفغاني، سعيد (١٤١٣هـ) *أسواق العرب في الجاهلية والإسلام*، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

باجودة، حسن محمد (د. ت.) *ديوان أبي قيس بن الأسلت*، دار التراث، القاهرة.

باجودة، حسن محمد (١٩٧٢م) *ديوان عبدالله بن رواحة شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم*، دار التراث، القاهرة.

البجاوي، علي والمولي بك، محمد أحمد وإبراهيم، محمد أبو الفضل (د.ت) *أيام العرب في الجاهلية*، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

البجاوي على الفضل وإبراهيم، محمد أبو الفضل (د. ت) *أيام العرب في الإسلام*، دار إحياء التراث العربي، (د. ن).

بدوي، عبدالرحمن (١٩٧٩م) *دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي*، دار العلم للملايين، بيروت.

بدوي، عبدالرحمن (١٩٨٤م) موسوعة *المستشرقين*، دار العلم للملايين، بيروت

بروكلمان، كارل (د. ت) *تاريخ الأدب العربي*، تعريب: عبدالحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط٤.

البهبيتي، نجيب محمد (د.ت) *تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري*، دار الثقافة، الدار البيضاء.

التبريزي، يحيى (١٤٠٧هـ) *شرح القصائد العشر*، ضبط: عبدالسلام الحوفي، دار الكتاب العالمية، بيروت، ط٢.

التوبخي، محمد (١٤٢٣هـ) *ديوان أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم*، دار الكتاب العربي، ط٤.

جبور، جبرائيل (١٩٧١م) *عمر بن أبي ربيعة*، دار العلم للملايين، بيروت.

الجبوري، يحيى (١٣٩٩هـ) *الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه*، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢.

الجبوري، يحيى (١٤١٤هـ) *شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه*، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤.

الجمحي، محمد بن سلام (د.ت) *طبقات فحول الشعراء*، *تحقيق:* محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

الجندي، أنور (د.ت) *الفصحى لغة القرآن*، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

أبوحاقة، أحمد (١٩٦٠م) *فن الشعر الملحمي*، دار الشرق الجديد، بيروت.

ابن حبيب، محمد (د.ت) *المحبر*، رواية: الحسن بن الحسين السكري، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.

حسنين، سيد حنفي (١٩٨١م) *الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية*، دار الثقافة، القاهرة.

حسين، طه (د.ت) *في الشعر الجاهلي*، دار المعارف، سوسة.

حسين، محمد الخضر (د.ت) *نقض كتاب في الشعر الجاهلي*، المكتبة العلمية، بيروت.

الخطراوي، محمد العيد (١٤٠٠هـ) *شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج*، دار القلم، مشق.

دينيه، ايتين وإبراهيم، سليمان (١٩٨٥م) محمد *رسول الله*، ترجمة: عبدالحليم محمود ومحمد عبدالحليم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ضمن سلسلة المجموعة الكاملة للدكتور عبدالحليم محمود.

الذهبي، محمد بن أحمد (١٤٠٧هـ) *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، تحقيق: عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، ج المغازي والسيرة النبوية.

ابن رشيق، الحسن (١٤٠١هـ) *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، دار الجيل، بيروت، ط٥.

زيدان، جرجي (١٩٧٨م) *تاريخ آداب اللغة العربية*، مكتبة الحياة، بيروت، ط٢.

سركيس، إحسان (١٩٧٩م) مدخل *إلى الأدب الجاهلي*، دار الطليعة، بيروت.

السنديوني، وفاء فهمي (١٤٠٣هـ) *شعراء صدر الإسلام وتمثلهم للقيم الاجتماعية*، دار العلوم للطباعة والنشر.

السهيلي، عبدالرحمن (١٤٢١هـ) *الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام*، تعليق: عبدالسلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الشافعي، علي بن محمد (١٤٠٦هـ) *أعلام النبوة*، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشافعي، محمد بن سيد الناس (١٤١٤هـ) *عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير*، شرح: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت.

شاكر، محمود محمد (١٣٩٥هـ) *الشعر الجاهلي*، مجلة العرب، دار اليمامة، الرياض، عدد شهري ذي القعدة وذي الحجة.

الشامي، محدد بن يوسف الصالحي (١٤١٤هـ) *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*، تحقيق عادل عبدالموجود وعلى معوض، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الشجري، ضياء الدين بن علي (د.ت) *الأمالي الشجرية*، (د. ن.).

شرف، حسن عبدالله (١٩٨٤م) *النقد في العصر الوسيط*، دار الحداثة، بيروت.

الشريف، أحمد (١٩٨٥م) *مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول*، دار الفكر العربي، بيروت.

الشنقيطي، أحمد الأمين (د.ت) *المعلقات العشر وأخبار شعرائها*، دار الكتب العلمية، بيروت.

الصعيدي، عبدالمتعال (١٣٨٧هـ) *مختارات الشعر الجاهلي أو دواوين الشعراء الستة الجاهليين*، مكتبة القاهرة، ط٤.

الضبى، المفضل بن محمد (د.ت) *المفضليات*، تحقيق: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، ديوان العرب، بيروت، ط٦.

ضيف، شوقي (د.ت) *العصر الإسلامي*، دار المعارف، مصر، ط٧.

ضيف، شوقي (د.ت) *العصر الجاهلي*، دار المعارف، مصر، ط٤.

ضيف، شوقي (د.ت) *الفن ومذاهبه في الشعر العربي*، دار المعارف، مصر، ط٨.

العاني، سامي (١٣٩٩هـ) *كعب بن مالك الأنصاري شاعر العقيدة الإسلامية*، دار القلم، دمشق.

عبدالجبار، عبدالله وخفاجة، محمد عبدالمنعم (١٩٥٩م) *قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي*، القاهرة، ط٢.

عبدالحميد، سعد زغلول (١٩٧٦م) *في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية*، بيروت.

عبدالرحمن، عائشة (د.ت) *قيم جديدة للأدب العربي*، دار المعرفة، القاهرة.

عبدالرحمن، عفيف (١٤٠٢هـ) *معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين*، دار العلم للطباعة والنشر.

عبدالستار، عباس (١٤٠٦هـ) *ديوان النابغة الذبياني*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢.

عرجون، محمد الصادق (١٤١٥هـ) *محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة*، بحث وتحقيق، دار القلم، دمشق، ط٢.

عرفات، وليد، ديوان حسان بن ثابت (د.ت) *أمناء سلسلة جب التذكارية*، (د. ن.).

العشماوي، محمد زكي (١٤٠٤هـ) *قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث*، دار النهضة العربية، بيروت.

العماري، فضل بن عمار (١٤١٧هـ) *الشعر المنحول قضايا ونصوص*، مكتبة التوبة، الرياض.

غريب، جورج (١٩٨٤م) *شاعرات العرب في الجاهلية*، دار الثقافة، بيروت.

الفاسي، محمد بن أحمد بن علي (١٤٠٥هـ) *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، تحقيق: عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت.

فاعور، علي (١٤٠٨هـ) *ديوان زهير بن أبي سلمى*، دار الكتب العلمية، بيروت.

فاعور، علي (١٤٠٩هـ) *ديوان كعب بن زهير*، دار الكتب العلمية، بيروت.

الفاكهي، محمد بن إسحاق (١٤١٩هـ) *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ط٣.

فروخ، عمر (١٩٨٣م) *تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية*، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦.

فيصل، شكري (١٩٨٣م) *تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة*، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦.

الفيفي، عبدالله (١٤٢٣هـ) *مفاتيح القصيدة الجاهلية*، نحو رؤية نقدية جديدة، *النادي الثقافي الأدبي*، جدة.

القاسمي، ظافر (١٣٩٨هـ) *نظرات في الشعر الإسلامي والأموي*، دار النفائس، بيروت.

ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (١٤٢١هـ) *الشعر والشعراء*، تحقيق: أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط٣.

القرشي، محمد بن أبي الخطاب (١٤٠٦هـ) جمهرة *أشعار العرب*، *شرح:* علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت.

قصاب، وليد (١٤٠٢هـ) *ديوان عبدالله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره*، دار العلوم للطباعة.

القط، عبدالقادر (١٩٧٦م) *في الشعر الإسلامي والأموي*، دار النهضة العربية، بيروت.

القيسي، نوري حمودي (١٤٠٥هـ) *شعراء إسلاميون*، مكتبة النهضة العربية، ط٢.

ابن كثير، **إسماعيل** (١٣٩٦هـ) السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، بيروت.

هارون، عبدالسلام (١٤٠٠هـ) *تهذيب سيرة ابن هشام*، دار البحوث العلمية، الكويت، ط٧.

الهاشمي، محمد علي (د.ت) *كعب بن مالك الأنصاري الصحابي الشاعر الأديب*، ١٤٠٥هـ.

هيكل، أحمد (د.ت) *في الأدب واللغة*، مكتبة الأسرة، القاهرة.

المرزباني، محمد بن عمران (١٤١١هـ) معجم *الشعراء*، تعليق: ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت.

مرغوليوث (١٣٩٨هـ) *أصول الشعر العربي*، ترجمة: يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة.

مرغوليوث (١٤٢٢هـ) *دراسات عن المؤرخين العرب*، ترجمة: حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

المطرفي، عويد بن عياد (١٤١٣هـ) *ورقة بن نوفل في بطنان الجنة*، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

أبو موسى، محمد (١٩٧٨م) *قراءة في الأدب القديم*، دار الفكر العربي، القاهرة.

الوكيل، محمد السيد (١٤٠٦هـ) *يثرب قبل الإسلام*، دار المجتمع للنشر، جدة.

اليحصبي، عياض (١٩٨٨م) *الشفا بتعريف حقوق المصطفى*، دار الفكر، بيروت.

ثانيًا: المراجع الإنجليزية

Beeston A.F.L. *et al., Arabic Literature to the end of the Umayyad Period.*

Kister M.J. (1980) *Studies in Jahiliyya and Early Islam*, Variorum Reprints, London.

Margol Iouth D.S. (1930) *Arabic Historians, University of Calcutta.*

Nichol R.A. (1930) *Son Aliterary History of the Arabs*, Cambridge University Press.

A Critical Analysis of Early Poetry in Defense of the Prophet

Asim Ali Hamdan

Assoc. Prof. of Arts, Fac. of Art and Humanities, King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

Abstract. This paper attempts to deal with pre-Islamic poetry which heralded the revelation of Muhammadan message, the seal of all divine messages. To begin with, the paper takes a look at pre- Islamic poetry and the Quraysh dialect which, on attaining maturity, became the acknowledged medium of poetry composition and narration. Thereafter, the paper will be dealing with an important issue, namely poetry ranging between rarity and abundance in the Makkah milieu of the pre-Islamic era, with relevant quotations from prominent Makkah poets during that period in time. A special reference will be made to lines of poetry which are attributed to az- Zubayr Ibn Abdulmuttaleb and Abdulmuttaleb Ibn Hashem, and which are indicative of faith as an integral part of human nature.

The paper proceedes to deal with important Makkah events such as the Elephant Episod, the birth of Prophet Mohammad (on him be peace and Allah's blessings), the Call to Islam and the beginning of the confrontation with the pagans of Quraysh, the boycott of Banu Hashem and their banishment to *al-Shi'b* by the enemies of the Call, and finally propagating the Call in areas far beyond Makkah which culminated in a pledge of allegiance to the Prophet Mohammad (on him be peace and Allah's blessings) made by *al- Ansar* at *Aqabah*.

At each juncture in thi chain of significant events which were instrumental in changing the direction of the Makkah society, poetry was there to monitor those events and keep them well- documented. This demonstrates how important poetry is in the struggle in which the Makkah society was involved. The paper allocates ample place to a poem by Abu al Qays Ibn al- Aslat, a Medina poet from al-Aws tribe, in which he warned Quraysh of the dangerous consequences of war and urged the tribe to put sanity and wisdom above any other motive. The poem acquires special significance as it demonstrates both the relationship between poets from Makkah and Medina going back to the pre-Islamic era and the recognition by the former of the sanctity of the House (i.e. Holy Ka'bahand the prestige Quraysh enjoys among all tribes.

The paper did indeed make an elaborate discussion of poetry composed both before and after the appearance of the Call in Makkah; poetry deemed as an important document of missionary, social, intellectual, and literary history at the time. It did also discuss at length what we may term "poetry of the first fruits of the Call and its early beginnings." Yet, the paper went much further than that. It dealt with poetry composed after the Prophet (on him be peace and Allah's

blessings) migrated to Medina, poetry considered to be a new and significant addition to the previous phases of the Call. However, the paper limited its discussion to some quotations from the poetry of Hassan Ibn Thabet – may Allah be pleased with him- who was described by an- Nabighah as the topmost poet. Hassan lived in two eras: the pre-Islamic epoch and the post- Islamic one. In the Medina epoch of the Call, Hassan was viewed as its eloquent spokesman and distinguished defender.

The paper also made as attempt to probe the poetry scene in Makkah during the pre- Islamic era through a technical analysis of the poems and an attempt to get them well documented against a background of related or parallel factors religious, political or social.